د. طالب عمران

دماغ في جسد آخر

(رواية من الخيال العلمي)

» اسم الكتاب: دماغ في جسد آخر.
» اسم المؤلـف: د. طالب عمران.
» الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-567-32-3
» الناشر: دار عقل للنشر والدراسات والترجمة.
» سنة الطباعة: 2019.

جميع الحقوق محفوظة لدار عقل

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل للنشر والدراسات والترجمة

سوريا – دمشق – جرمانا – ص.ب: 249 جرمانا

هاتف: 00963115618956

00963115637060

خلوي: 00963932832010

aklpublishing@gmail.com

القسم الأوّل

الإنذار والرحيل

(1)

كيـف يتغـيّرُ الزمـن بسرعـة؟ كيفَ تزدادُ المتاعـب والأعباء التـي تُرهق كاهلَ الإنسـان، وهـو يدخـلُ في العام (2030)، حـدّثَ الدكتور طارق نفسـه، وهو يحتفلُ مـع زوجتـه لينـا وابنه هـمام في عيد رأس تلك السـنة..

كانَ احتفـالاً صغـيراً اقتـصرَ عـلى أفـرادِ الأسرة الصغـيرة، الذيـن اسـتعادوا ذكرياتهـم الطويلـة عـن المـاضي، وتغـيّر الإنسـان وازديـاد مشـاكله وهمومـه..

كانَ طـارق أحـد أبـرز كتّـاب الخيـال العلمـي في العـالم، عـاشَ حياتـهُ يُدرّس في الجامعـة حتـى العـام (2013) حيـثُ تقاعـد وتفـرّغَ للكتابـة، التي كانـت المهنة الثانيـة لـهُ بعـد الجامعـة.. كانَ غزيـر الإنتـاج عـلى علاقـةٍ مذهلـةٍ مع النـاس، كان يحـبُّ الجميـع بصـدقٍ ويضحّـي في سـبيلهم، مَـع أنّـهُ تلقـى ضربـات موجعـة من أنـاس سـاعدهم وأنقذهـم مـن ورطاتهـم الاقتصاديـة الخطيرة..

كان طـارق قـد تـزوجَ لينـا بعـد قصـة حـبّ طويلـة.. وكانـت نموذجـاً رائعـاً للزوجـة والحبيبـة والأم، كـما كان يسـميها.. وكان همامٌ ابنهُ شـاباً متفوقـاً بالبرمجة العالية..

كانَ اجتماعـاً مصغّـراً في ذلـك اليـوم، وهـم يحتفلـون بقدوم العـام (2030)، همهـمَ طارق شـارداً:

- دومـاً أشـعرُ أنَّ رأسَ السـنة يعنـي الأمل في المسـتقبل، رغـمَ أنَّ هذهِ الآمال

قـد أُحبطـت منذ سـنوات طويلـة.. المهمّ أن نظـلّ مؤمنين بالإنسـان وإمكانية الخير فيـه.. وأن نثـيرَ هذا الجانـب الغافل أحيانـاً في بعض الناس..

سأل همام:

- أتعتقدُ يا أبي أنَّ المستقبل يحملُ لنا طفرة لصالحنا؟

- مـاذا تقصـدُ يـا هـمام؟ أتقصـدُ أن يحقّـقَ لنـا المسـتقبل بعضَ الآمـال التي نحلـم بهـا؟ أمْ تقصـد شـيئاً خطيراً يمكن أن يجـري في العالم، يسـهم في تغيير الصورة القاتمـة التي نرسـمها عن المسـتقبل؟

- نعـم يـا أبي، قـد يحـدث تغيير فجـائي في بنيـة كوكبنـا ويدمّر العـالم، ليعودَ الإنسـان إلى بدائيتـه.. تنهّـدَ الأب بحرقة:

- أعتقـدُ أن هـذا أمـرٌ لا يعلمـهُ سـوى اللـه عـزّ وجـلّ، إذ لا يمكـن أن نتنبـأ بحـدوث شيءٍ كهـذا لا تـدلُّ عليـه معطيـات العلـم الـذي نعرفـه..

وأكملت لينا:

- من الصعب يا بُنيّ أنْ يعودَ الحبّ إلى هذا الكوكب من جديد..

وطُرِقَ الباب فجأة، تساءل همام:

- خيرٌ، من الذي يَطرقُ علينا الباب في هذه الساعة؟

قالت لينا:

- ربما عابرُ سبيل أرادَ أن يحطَّ الرحالَ عندنا بعضَ الوقت.

همسَ طارق:

- تأكّدْ أنّني سأستقبلهُ بكلّ الودّ والمحبّة التي أحملها للناس..

فتحَ همام الباب، كانَ هناكَ مجموعة من الناس..

- أهلاً وسهلاً.. خير؟

- نريدُ أن نرى الدكتور طارق لأمرٍ مهمّ..

- خيرٌ؟ ما الذي تريده منه؟

هتفَ طارق:

- لا تسأل هذا السؤال يا بُنيّ.. تفضلوا يا جماعة..

دخلوا إلى الصالة الواسعة، قالَ أحدهم:

- نحملُ مريضاً ضعيف الصحّة، أصرَّ على رؤيتك قبلَ أن يموت..

- إنّهُ والدي العجوز، تابعَ ما تكتبهُ مؤخراً في الصحف، وأصرَّ على لقائك..

- أهلاً وسهلاً بكم تفضلوا..

رفعَ الشاب صوتهُ يُعرّف والده بالدكتور طارق:

- إنّهُ الدكتور طارق يا أبي.. إنّهُ أمامكَ يمكنكَ أن تستفسر منهُ ما تريد..

همهمَ الشيخ:

- أنتَ تكتبُ جيّداً يا دكتور.. أشعرُ أنّكَ تخاطب وجدان القارئ وتؤثر فيه.. أيمكن أن أحادثكَ على انفراد؟ إنَّها الرغبة الأخيرة لي.. أرجوكَ حققها لي..

- لا بأس، ما رأيكَ لو دخلنا إلى المكتب هنا، وأغلقناه بعيداً عن أعين الفضوليين وآذانهم التي تسترقُ السمع..

- لا بأس.. ساعدني يا بُنيّ.. هيّا..

* * *

- هه؟ أصبحنا وحدنا الآن..

- ألا تخاف من الموت يا دكتور؟

- الموتُ حقٌّ، والخوفُ منهُ قد يحصل أحياناً، وأنا لا أخافُ منهُ..

- ألستَ تعيشُ سعيداً مع امرأتك وابنك؟

- بلى.. وأمرُ رحيلي عنهما لا يُرعبهما إلى هذهِ الدرجة.. هه، ولكن قُل لي لماذا تسألني مثل هذه الأسئلة؟

- في الحقيقة شعرتُ بالخوف عليك، وأنت تتعرضُ لحادثٍ مريع، رأيتُ ذلك في الحلم.. وكنتَ ترتدي هذا القميص.. نعم هو نفسه.. الألوان نفسها..

- أتعبتَ نفسكَ بالمجيء لتحكي لي هذا الحُلم وأنتَ تشكو آلام المرض؟

أخذَ الشيخ يسعلُ، وبعدَ أن استردَّ هدوءه قال:

- الجميعُ يحبونكَ، أنتَ نقطةُ ضوءٍ في حياتنا يا دكتور طارق..

- لا بأسَ عليكَ.. هه، تُريدُ أن آخذَ احتياطاتي، وأن أحاولَ تفادي الحادث.. حسناً سأحاولُ ذلك..

- ليتني أستطيعُ أنْ أفعلَ لكَ شيئاً، ولكني لن أعيشَ كثيراً.. أرجوكَ انتبه لنفسك..

عادَ إلى السعال من جديد، فكّرَ طارق بعاطفة شديدة نحو هذا الشيخ:

«وهو في هذهِ الحالة الصعبة أتى ليحكي لي حُلمه عن الموت.. والحادث الذي يمكن أن يقعَ لي.. سبحان الله..».

حاولتْ لينا معرفة سبب زيارة ذلكَ الكهل المريض، وقد طمأنها طارق أنّها مشكلةٌ خاصة، حيث وعدَ ألَّا يحكي تفاصيلها لأحد..

وفي تلكَ الليلة تأخّرا في السهر وهما يتحادثان عن المشاكل البيئية المتفاقمة، وقد بدأ المرض يتفشى بين الناس من جراءِ التلوّث..

كانَ طـارق قلقـاً على مصـير الناس، وهو يشـهدُ المرض يحصدهـم بالعشرات يوميّاً في المشـفى القريـب من منزله..

ورغـمَ تلـوّث الهـواء الخانـق مـن جـراء الازدحـام المـروري وأبخـرة المصانـع المنتـشرة حـول المدينـة وتلـوّث الميـاه الجوفيّة مـن النفايات السـائلة، فقـدْ روّجت الـشركات لأنـواعٍ جديـدة مـن السـيارات الصغـيرة، أقبلَ النـاس على شرائهـا بأعداد كبيرة..

وازدادَ عـدد السـيارات في المدينـة في أيّـام قليلـة قُرابـة (20) ألـف سـيارة، قبـضَ المروّجـون لهـذه الأنـواع مبالـغ دسـمة عمـولات مـن تلـك الـشركات..

ومـع أنَّ الإعلانـات صـورت تلـك السـيارات صديقـة للبيئـة، يحـترق فيهـا البـترول احتراقـاً كامـلاً، فـإنَّ ما حدث كان عكـس ذلك، فقد ازداد اندفاع الأكاسـيد في الجـوّ، إضافـة إلى الغـازات الضـارة الناتجـة عـن العـوادم..

كان ذلـك الموضـوع مثـارَ اهتـمام طـارق ولينا، وقـد تكلما حولـهُ حتى وقت متأخـر مـن الليل، ونامـت لينا قبل طـارق، ورأتْ حُلـماً مزعجاً..

* * *

«لمـاذا يتكاثـفُ الظـلام هكـذا؟ يـا إلهـي لا أسـتطيع أن أرى طريقـي وأنـا أتخبـطُ في الظـلام.. مـا هـذا؟ إنّـهُ نـورٌ مبهـرٌ يظهـرُ في السـماء فجـأة..».

- لا تُحدّقي كثيراً في مصدر الضوء يا ابنتي..

- ومن أنتِ؟ منذُ زمن وأنا أتخبطُ في الظلامِ وحدي..

لم تسـتطع تبـيّن ملامحهـا ولكنَّهـا مـن صوتهـا المتهـدّج عرفـت أنَّهـا كبيرةٌ في السنّ.

- جئتُ لمساعدتك، ستمرين بمحنةٍ قاسية.. انظري إلى ذلك الشيء اللامع، إنَّهُ طبقٌ طائر يهبطُ إلى الأرض..

وفعلاً رأتْ طبقاً طائراً مُضيئاً يهبطُ إلى الأرض..

- طبقٌ طائر؟ ليتَ طارقاً معي.. إنَّهُ يُؤمنُ بوجود حضاراتٍ عاقلة في الكون، ويتمنّى أنْ يلتقي مع كائناتها المتطورة، ليتهُ كان معي..

- ألستِ خائفة؟ قد تخرجُ تلكَ الكائنات من الطبق الطائر وتسببُ لكِ الأذى؟

- عوّدني طارق ألّا أخافَ من الجديد المدهش، وإلّا فقدتُ مُتعةَ الاكتشاف، ثُمَّ إنَّ تلكَ الكائنات يجب أن تكون لطيفة، وإلّا ما تطورت حضارتها لتصلَ إلى هذا المستوى الذي يجعلها تصلُ إلينا..

توقفَ الطبقُ الطائر عن الدوران.. وانفتحَ بابٌ كبير في بطنهِ وخرجَ منهُ سُلّم يمتدُ حتى الأرض.. حيثُ رأتْ لينا بعضَ الكائنات وهي تهبطُ السلّم..

همست العجوز مطمئنةً لينا:

- إنَّها تتجهُ نحونا، تعالي لأداريك يا ابنتي في مكانٍ آمن..

- قلتُ لكِ: إنّني لستُ خائفة يا خالة..

اقتربتْ بعضُ الكائنات بسرعة مدهشة منهما:

- جئنا لنصطحبك معنا يا سيّدتي..

كانت كائنات شبيهة بالبشر.. ما زالت تقتربُ منهما..

صرخت العجوز:

- لن أسمحَ لكم باصطحابها..

همسَ أحدهم:

- زوجُكِ معنا، وقد رَغِبَ أن تشاركيه متعةَ الكشف..

- لا تستمعي لهم يا ابنتي، أنا خائفةٌ عليكِ..

- ولكن طارقاً معهم..

- وما أدراكِ أنَّهم يقولون الحقيقة؟

سألتهم لينا:

- أين زوجي؟ لماذا لا أراهُ ليستحثّني على الذهابِ معكم كما تقولون؟

- سترينهُ حتماً.. إنَّه داخل المركبة..

- لماذا لا يخرجُ إلينا؟

قال أحدهم:

- إنَّهُ مصابٌ في رأسهِ ونحنُ نعالجهُ..

وقالَ آخر:

- إصابتهُ خطيرة، وقد تجاوزها الآن..

صرخت:

- طارق مصابٌ في رأسهِ.. يا إلهي.. أريدُ أن أراه..

همست العجوز:

- لا تطمئني كثيراً إليهم، ربما كانوا يكذبون عليك..

- يجبُ أن أرى طارقاً يا خالة.. أنا خائفةٌ عليه..

- سأذهبُ معك إذن.. هيا..

حدّثهما كائنٌ طويلُ القامة:

- سأنقلكما بسرعة داخلَ المركبة ركّزا معي..

وفي لحظةٍ كانوا داخلَ المركبة.. كانت مركبة فضاء غريبة تنتشرُ على جدرانها الأجهزة المعقدة..

- يا إلهي.. إنَّهُ طارق فعلاً..

صرخت:

- ماذا فعلتم به؟ لماذا رأسهُ مفتوحٌ هكذا؟

- سحبنا دماغهُ من رأسه، نحنُ نجري عليه التجارب، وسنعيدهُ ثانية..

- رأسهُ فارغٌ دونَ دماغ، أنتم تقتلونه.. لا.. لا..

- إنَّهُ يعاني مرضاً خطيراً..

- أنتم أشرارٌ في تعاملكم مع الناس..

- لسنا أشراراً، نحنُ ننفذُ مهامَ معينة..

- وماذا فعلتم له؟ كيفَ انتزعتم دماغهُ هكذا؟

- نحن لا نعرفُ الكذب.. كانَ يُعاني من مرضٍ خطير فعلاً.. إننا نحاولُ إنقاذه..

- لا.. لا..

صرخَ أحدهم:

- أمسكوا بها سنقومُ بإجراء تجارب عليها أيضاً.. هيّا أمسكوها..

صرخت العجوز:

- لن تستطيعوا ذلك، ابتعدوا عنها.. ابتعدوا.. هيّا..

رأتْ لينا تلكَ العجوز تدفعُ عنها الكائنات، ثمَّ سحبتها نحو الباب الخارجي

في أسـفلِ الطبـق الطائـر، وعلى الرغـم من محاولات تلـك الكائنات السـيطرة عليها وانتزاعهـا مـن بـين يدي العجوز.. فقد كانت العجوز أشـدّ قـوّةٍ منهم..

أظهـرت للينـا أنَّهـا تتمتـعُ بقـدرةٍ خارقـة، جعلتهـا تطـيرُ مخترقـةً المـكان، سـاحبةً لينـا خلفهـا، حتّـى ابتعدت عـن الطبق الطائر حيـث أوصتها جيـداً بالحذر ثـمَّ اختفت..

شـعرتْ لينـا بالرعـب وهـي تـرى الكائنات تتدفـقُ من الطبـق الطائـر كأنَّها تبحـث عنهـا، ورأتهـا فجـأة تحيـطُ بها بأجسـامها النحيلـة ورؤوسـها الضخمة..

كانَ منظـرُ طـارق برأسـهِ المفتـوح الخـالي مـن الدمـاغ يـتراءى لهـا فتبـكي بحرقـة.. وشـعرت أخـيراً أنَّ يـداً توقظهـا..

* * *

(2)

- لينا ما بكِ؟ أنتِ تشهدين كابوساً..

- يا إلهي.. أنتَ هنا ولستَ معهم، الحمدُ لله..

أخذت تبكي وهي تضمهُ إليها:

- كنتِ تحلمين يا حبيبتي.. لا داعي للخوف..

- كنتَ معهم دونَ دماغ، كانوا يجرونَ التجاربَ عليكَ.. اعتقدتُ أنَّني فقدتكَ يا طارق.. يا إلهي كانَ حلماً فظيعاً..

- اهدئي كُلّ شيءٍ على ما يُرام يا لينا.. أنا بخير.. حدثيني عن تفاصيلِ حلمكِ.. بهدوء..

- تلكَ العجوز أنقذتني منهم.. إنّهُ حُلمٌ غريب.. حُلمٌ مخيف..

- لا بأسَ أريدُ أنْ أسمعهُ كاملاً.. هيّا تكلّمي..

- كنتَ ممدّداً على طاولةِ الكشف، ورأسك مفتوحٌ دونَ دماغ..

عادت تبكي بحرقة، ربّتَ على رأسها وهو يضمُّها:

- اهدئي يا لينا، أريدُ أنْ أسمعَ تفاصيلَ حُلمكِ هيّا.. تكلمي.. اهدئي.. وتكلّمي..

حكتْ لهُ حُلمَها، وأضافَ هذا الحلم إلى ما حكاهُ لهُ الشيخ فعرفَ أنّ شيئاً ما في الأفق قد يحدثُ له.. ولكنَّهُ لم يكنْ من النوعِ الذي يقلقهُ الموت،

فهـدّأ لينـا حتـى عـادتْ إلى النوم مـن جديد..

ثـمَّ نهـضَ يكتـبُ في يومياتـه تصـوّراً عن حياة النـاس في الأشـهر المقبلة.. وفي الصبـاح الباكـر طُـرقَ البـاب الخارجـي أيضـاً.. هرعَ يفتـحُ الباب مُشـفقاً على همام مـن الاسـتيقاظ، لكنَّـهُ وجدهُ قد سـبقه..

- جئتُ أفتحُ البابَ يا أبي..

- لمْ أرغب أن أزعجكَ وأنتَ مرهقٌ في عملك..

- لا بأسَ يا أبي.. العملُ متعة حقيقية، وأنا أكرهُ الفراغ..

فتحَ همام الباب، فرأى رجلاً وامرأة لم يرهما من قبل يقفان أمامهُ..

قالَ الرجل:

- أتسمحُ لنا بالدخول؟ إنّهُ أمرٌ مهم، والدكَ موجود؟

صرخ طارق:

- تفضلا.. أهلاً وسهلاً..

جالا في الصالة، قالَ الرجلُ مُعرّفاً:

- أنـا مهنـدسٌ إلكـتروني وزوجتي تمـارسُ الطـب النفسي في مشـافي الجامعة.. اجلـسي يـا هدى..

- خيرٌ؟ تبدو متلهفاً لإخباري بشيءٍ ما.. هاتِ أخبرني.

قالت المرأة:

- أنا من سيخبركَ يا دكتور طارق..

قال همام مستأذناً:

- سأصنعُ لكم قهوة حالاً.. بإذنكم..

بعد خروج همام تنهدت المرأة وهي تقول:

- مع الأسف طرقَ على بابي كثيرون في الليل، وهم يحكون عن أحلامَ وحوادث جرت في المدينة، وضحايا كثيرين يتمددون في الشوارع، وكنتَ أنتَ من بين الموتى.. أنتَ يا دكتور طارق..

- أنتِ طبيبة نفسيّة يا دكتورة هدى، ما تفسيركِ لهذهِ الأحلام؟

- أعتقدُ أنَّ عدداً من الناس سيموتون.. وتزداد المدينة اضطراباً وفوضى..

- موتى الحوادث يزدادون مع ازدياد استخدام وسائل الراحة.. هذا أمرٌ طبيعي..

- الكلُ خائفٌ عليكَ.. وقد رجوني أن أزورَكَ وأحكي لك ما شاهدوه، ففي رأيهم ربما أسهمت العمليّة في أن تأخذَ حذركَ جيّداً، ولا يحدثُ لكَ شيء يهددُ حياتكَ، إنَّهمُ يحبونكَ كثيراً..

- إذا كان الموتُ مكتوباً عليّ، فلن أستطيعَ أن أؤخره.. على كل حالٍ شكراً لكِ.. فقد تجشّمتِ عناءَ القدوم إلى هنا، وأنتِ من حيٍّ آخر.. كما أعلم..

- حدثيه يا هدى عن الحالات التي تصادفينها في عيادتك.

همهمت متعبة:

- إنَّها حالات تستدعي الخوف على الناس.. وقد ازدادت أمراضهم النفسية مع عصر الضجيج والتلوث الذي نعيشهُ.. هناكَ حالات من انفصام الشخصية وحالات من الاكتئاب.. وحالات من الخوف المبكر والنزعات العدوانية وغيرها من الأمراض.. إنّها تنتشر بسرعة كبيرة.. عدا عن انتشار أنواع جديدة من الأمراض..

- إنَّهُ عصرنا المرعب.. ويجب أن نسهم في توعية الناس معاً..

جاءَ همام بالقهوة.. ووضعها أمامهم.. نبههُ والدهُ وهو يشيرُ إلى الساعة:

- جهّز نفسك.. لا وقتَ لديكَ.. عليكَ الالتحاق بالعمل..

همسَ إليه:

- هل أوقظُ أمّي؟

- لا.. لا داعي لذلك..

ابتعدَ همام إلى الداخل يهيّئ نفسهُ للذهاب إلى عمله.. وظلَّ طارق يرمقُ ضيفيه باهتمام، قالت الطبيبة:

- حدثتني زميلة لي في المشفى المركزي عن الحالات العديدة التي تصادفها من المرضى، السرطانات تنتشر بسرعة كبيرة يا سيّدي، فكلّ يومٍ تخرج عشرات التوابيت من المشفى، إنَّهُ وضعٌ خطير فعلاً..

- معكِ حقّ، يجب أن نزيد من حملات التوعية..

عادت تلحُّ عليه:

- أرجو أن تنتبه لنفسكَ يا دكتور، أعتقدُ أنَّ أحلامَ الناس حولَ الأخطار التي يمكن أن تتعرض لها نابعةٌ من حبهم لك وخوفهم عليك، وهي تؤكّدُ في رأيي أن الخطرَ عليكَ وعلى حياتكَ قائمٌ فعلاً..

- شكراً لكِ يا دكتورة هدى على هذا الاهتمام، ولكنّني رجلٌ في الثانية والثمانين مَع أنّني أبدو قوياً ولكنّي متقدمٌ في السنّ أيضاً، قد أموت في أيَّة لحظة..

قال الرجلُ بعطف:

- ما زلنا ننتظرُ الكثيرَ من كتاباتك، أطالَ اللهُ في عمركَ يا دكتور طارق..

وحينَ ودعهما طارق إلى الباب، وعادَ إلى الصالة، رأى لينا جالسة وهي تبكي بُكاءً مرّاً.. لقد سمعتْ حديثَ الدكتورة هدى وتحذيرها لطارق من الأخطار التي يُمكن أن يتعرضَ لها..

كما ربطت حلمها مع أحلامِ الناس الآخرين فشعرت بالخوف الشديد من أن تفقدَ زوجها.. وعلى الرغم من محاولته تهدئتها، فلقد كانت حزينةً، أكلَ قلبها القلق..

- أنتِ مؤمنةٌ بالله يا لينا، لماذا تخافين من الحق؟

- أعلمُ أنَّ الموتَ حقّ، ولكنّي لا أتصور فقدانك، ليتنا نموتُ معاً..

- وهمام؟ أتريدين أن يبقى وحيداً ولم يتزوج بعد؟ أرجوكِ اهدئي ولا تُرعبي نفسكِ بالتفكير هكذا.. مصدرُ خوفِ الناس وأحلامهم المزعجة تأتي من تزايد عدد الموتى عندنا؛ نتيجة عوامل التلوث والأمراض الفجائيّة ونقصان الراتب الغذائي لدى الكثير من الفقراء.. إنَّها عواملُ مساعدة للموت، وبما أنَّهم يعرفون أنَّني أكتبُ عن الناس ومشاكلهم، وأطالبُ بحلول سريعة، فإنّهم ربطوا بين أحلامهم وبيني..

- وينطبقُ هذا على ذلكَ الشيخ الطاعن في السن؟

- نعم.. وعليكِ أنتِ أيضاً يا حبيبتي.. لقد تأثرتِ من حديثه، وأظنُّ أنَّكِ سمعت نُتفاً منه حول حلمه بموتي.. لا تَدَعي مثلَ هذه الأمور تؤثّرُ فيكِ، الموتُ حقّ.. ولا يعرفُ أحد متى يأتي..

- أنتَ تحلّل منطقياً ما يجري، ولكن أحداثاً أخرى قد تقع خارجَ حدود

المنطق؟

- بالطبع، ولن نتناقشَ حولَ تلك الأحداث، لأنَّنا لا نستطيع استيعاب أسبابَ حدوثها..

رنَّ جرسُ الهاتف قربهُ، فرفعَ السماعة:

- ألو.. نعم دكتور عزمي.. أهلاً.. خير؟

- أريدُ أنْ أذكّرَكَ بمحاضرتك اليوم..

- أذكرها جيداً لا تقلق، في الساعة السابعة مساءً..

- نعم.. ويبدو أنَّ بعضَ الشخصيات المهمة ستحضرها.. فموضوعها (البيئة ومستقبل الإنسان) ليسَ موضوعاً سهلاً..

- لا تقلق عليّ.. أعرفُ كيف أتعامل مع كل الأسئلة المحرجة..

- بارك اللهُ فيك، سأكونُ في انتظارَكَ في مكتبِ نقابة الأطباء في الساعة السادسة والنصف..

- إن شاءَ الله، مع السلامة..

وضعَ السماعة، سألتهُ لينا:

- سأرافقكَ اليوم؟

- أنسيتِ موعدكِ مع همام؟ يريدُ أن يعرّفكِ بالفتاة.

- آه.. معكَ حق، وإن كنتُ أرغب كثيراً في حضورِ هذه المحاضرة المهمة..

- لا بأس.. سأحضّرُ شريطاً مُسجّلاً عنها..

- نعم.. أرجوك..

- هيّا يا حبيبتي.. أعدّي لنا الفطور..

- تنهّدت وهي تتماسكُ وقلبها ينفطرُ خوفاً وقلقاً على زوجها..

* * *

(3)

زارَ طارق الصحيفة التي يعمل فيها، وسلّمَ رئيس التحرير مقالات عدة عن أسبابِ انتشارِ الأمراض بين الناس، وحكايات عن الموت، وقضايا علميّة لها علاقة بمستقبل الإنسان وسطَ فوضى استخدام العلم.. ثمَّ اتجهَ إلى المصرف يطمئن عن التحويلات التي أرسلها للأسر الفقيرة في المدينة، واتجهَ بعد ذلكَ إلى الحديقة العامة، حيثُ ازدحمَ الناس على المقاعد وقد استقبلهُ بعضهم باحترامٍ كبير.. حاولَ أن يجد لنفسهِ مكاناً منزوياً فلم يستطع لازدحام الناس..

فاتجهَ صوبَ المكتبة العامة لقراءة آخر الأخبار، كان يشعرُ بنشاط غير عادي، وقد شعرَ أنَّ النظام الذي يطبقهُ في حياتهِ ساعده على الاستفادة من الوقت بشكل ممتاز.. وصلَ إلى المكتبة العامة، فاستقبلهُ الموظفون بترحاب، وهم يعرضون عليه كتبهُ الجديدة التي وصلت إلى المكتبة حيثُ حفظَ بعضها في حاسوب المعلومات وتبادلَ معهم حواراً عن البيئة، واستوقفتهُ إحدى الموظفات تسألهُ:

- كتابكَ الجديد عن (آثار التلوّث على سلوك الحيوانات) يفسّرُ العديدَ من القضايا الزراعيّة والبيئية التي تتحدّثُ عن تغيير في التشكيلات الوراثية لبعض الحيوانات.. هل تدخل الكلاب ضمنَ هذه الدائرة؟

- الكلابُ حيوانات تتعايش مع الناس.. وما يؤثّرُ في الناس يؤثّر فيها،

لذلـكَ قـد يطـرأ تبـدّل خطـير عـلى سـلوكها أيضـاً.. قـد تصبـح عدوانيـة فجـأة.. أو حتـى تتـصرّف ببلاهـة وحمـق، وقـد يقـلّ إخصابهـا إلى حـدٍّ خطـير..

- وروايتـك (المفقـودون خـارج الزمـن) مَـع أنَّهـا روايـة مـن الخيـال العلمي، ألَهَـا أسـسٌ مـن المنطـق العلمي؟

- بالطبـع.. ففـي عـام (1943) وفي أثنـاء الحـرب العالميـة الثانيـة – في القـرن المـاضي – اختفـت باخـرة حربيـة فجـأة مـن مرفـأ أمريـكي، بـكلّ طاقهـما وركابها.. بعدمـا طبقـتْ عليهـا لجنـة علميـة اختبـاراً لإخفائها.. ولكنّهـم رغـمَ كل المحاولات لم يسـتطيعوا أن يعيدوهـا.. مـا قمـتُ بـهِ في روايـة (المفقـودون خـارج الزمـن) هو أنَّنـي تحدّثـتُ عـن الزمـن واختراقـه، والغـوص في المسـتقبل أو العـودة إلى الماضي..

- أنا آسفة يا دكتور، أرجو ألّا أكون قد أخذت كثيراً من وقتك..

- لا بأس..

أتى إليهِ أحد الموظفين مندفعاً ومعه بعضُ الكتب:

- صباح الخير يا دكتور.. المكانُ الهادئ ينتظركَ في قاعة الباحثين..

- شكراً لك، أحضر لي صحف اليوم من فضلك..

- سـأحضرُ لـكَ كلّ الدوريّـات التـي تصـدر وتردنـا.. لتطلـعَ عـلى مـا تشـاء وليـسَ الصحـف فقـط..

- بارَكَ الله فيك.. كيف حالُ ابنك اليوم؟

- ما زال يعاني يا سيّدي.. يحتاجُ إلى العلاج خارج البلاد.

- سـأكتبُ لـك خطابـاً إلى أحـد الأصدقـاء للاهتـمام الشـخصي بـه.. حـرامٌ أن تضيـعَ حياتـه، وهـو في هـذا السـنّ وذكاؤه خـارق..

أخرجَ بعض المال من جيبه:

- انتبـه جيّـداً، ضـع هـذا المبلـغ في جيبـك، أنـتَ تحتـاجُ إلى المـال.. أرجـو أن يهتـمّ صديقـي بموضـوع ولدك..

- ولكن يا سيّدي؟ المال؟ إنَّهُ..

- إنَّهُ منّي، وهو لكَ، حاول أن تدبّرَ به أمورك..

- قد لا أستطيعُ ردّهُ بسرعة..

- ومن قالَ لك إنّه دينٌ أو قرض؟ إنَّهُ لك، ولا أريدُ منه شيئاً..

- شكراً لك يا سيّدي..

لمْ يقـضِ طـارق في المكتبة سـوى نصف سـاعة، حيثُ ذهـبَ بعدها إلى زيارة أختـه، وقـضى هنـاكَ بعضَ الوقت قبـلَ أن يذهبَ لزيارة صديقـه في المطبعة..

ولم تصـل السـاعة إلى الثالثـة، إلّا وكانَ قـد زارَ معظـمَ أصدقائـه ومعارفـه.. حتّـى أقاربـه البعيديـن.. كانَ يشـعرُ بنشـاط غير عـادي، وقد حقّقَ لنفسـه في ذلك اليـوم حضـوراً في بيـوت أصدقائه، مـن المرح وجـوّ الفكاهة التي نشرها.. اسـتقبلته لينـا عـلى الباب:

- تأخّرتَ اليوم، ليست عادتك..

- كل ذلك من ازدحام السير، ثمَّ إنَّني زرتُ العديد من الأصدقاء اليوم..

همستْ:

- هناكَ امرأة تنتظركَ في الداخل.. تقولُ إنَّها تريدكَ لأمرٍ مهمّ..

- هل سألتها عن هذا الأمر؟

- بالطبع لا..

- سأراها إذن..

دخلَ إلى مكتبهِ مُرحباً بالمرأة متوسطة العمر:

- أهلاً بك..

- اسمع يا دكتور لن أطيلَ الحديث، أعلمُ أن وقتكَ حرج، ولكنّي رأيتُ حُلماً عنكَ أزعجني كثيراً، فجئتُ لأحذركَ، قد تتعرّض لحادثة ينفذها بعضُ الذين باعوا ضمائرهم.. كانَ حلماً عن حادثٍ مدبّر ذهبتَ أنتَ ضحيته..

- أتعتقدين أنَّ الحلم يتعلّقُ بموتي أنا؟

- بالطبع. أحلامي التنبئية صادقةٌ دائماً..

- ولكن الموتَ في الحلم يعني حياةً لدى بعض المفسّرين..

- إنّهُ الفرقُ بين الحلم والرؤيا.. الحلم قد لا يتحقّق، على حين الرؤيا صادقة..

- على كلِ حالٍ شكراً لأنَّكَ تجشمت العناء في الحضور إلى هنا لإخباري..

- زوجي من المعجبين بكَ، وهو الذي دفعني للمجيء إلى هنا..

- هل تناولتِ شيئاً؟

- شربتُ القهوة مع زوجتكَ اللطيفة، إنَّها قلقةٌ عليك، تأكّد أنَّني لم أخبرها بشيء، ولكنّها تشعرُ بما يمكن أن يجري.. إنَّها حسّاسةٌ جداً..

ودّعَ طارق المرأة، ولم يحكِ للينا شيئاً، بل اتجهَ بجديّة إلى مكتبه يكتبُ شيئاً من مذكراته، قبلَ أنْ يبدأ بكتابة وصيتهِ التي تضمّنت مساعدات كثيرة ورواتب لعائلات فقيرة.. ثمَّ منزلاً مع مبلغ من المال لهمام، والباقي وهو كثير أيضاً تحتَ تصرّف لينا..

دعتهُ للطعام أكثرَ من مرّة.. ولكنّهُ اعتذرَ كونه مشغول بالتحضير لمحاضرته المسائية.. وبعدَ أن انتهى من إجراءاته، جلسَ مع لينا يتناولان الطعام، لم يكنْ يشعرُ بأيّة شهيّة، وبعدَ أن انتهيا سألها أن تلحقَ بهِ إلى المكتب.. أتتْ مترددة بعد دقائق:

- خيرٌ يا طارق ماذا تريدُ منّي؟

- أنا مستغربٌ كيفَ لا تملكين مُفتاحاً لمكتبي، لماذا لم أسلمكِ نسخةً عنه؟ على كل حال من الضروري أن يكون لديك مفتاح آخر لكل ما عندي من أدراجٍ وخزائن..

أعطاها حزمة المفاتيح:

- خذي، إنَّها نسخة كاملة..

- لماذا فكّرتَ بذلكَ الآن؟ هل أخافتكَ الأحلام؟

- لا. يا لينا، أنا لا أخاف، ولكنَّهُ وضعٌ احترازي.. هذا أفضل.

- أنتَ تخفي عني ما يزعجك؟ لماذا يا طارق؟

- صدقيني يا حبيبتي ليس لدي أسرار.. وليسَ هناك ما يزعجني.. هه..

كانت دموعها تنسابُ بصمت:

- اهدئي أرجوك.. ألمْ يعد همامٌ بعد؟

تماسكت وقلبها ينفطرُ من الحزن:

- هذا وقتهُ.. لن يتأخّر..

- أتمنى أن تعجبك الفتاة، همام يبحثُ عن الاستقرار.. وهو راغبٌ فعلاً بالزواج..

- أعلمُ ذلك، وأنا أحاول أن أسوّي له ما يعترضهُ من عراقيل..

- بارك الله فيك..

دخلتْ إلى غرفة النوم، وأغلقتْ خلفها الباب ثمَّ انفجرت بالبكاء..

* * *

(4)

وقُرابة السادسة وصلت حافلة صغيرة، لتقل الدكتور طارق إلى جمعية حماية البيئة من أجل محاضرته، عن (الإنسان وفوضى استخدام العلم)، وقد توقفَ لدقائق في مكتب الدكتور عزمي، الذي وعدهُ أن يلحقَ به سريعاً..

كانَ الدكتور عزمي مُنشغلاً بكتابة تقديمٍ لصديقه العزيز، يقدّمهُ فيهِ للناس الذين سيحضرون المحاضرة وأغلبهم من جمعيات حماية البيئة في الوطن العربي..

واتجهت الحافلة صوبَ مقرّ الجمعيّة، في الوقتِ نفسهِ الذي تحرّكت فيه لينا وهمام من البيت، للقاءِ الفتاةِ التي أُعجبَ بها همام..

كانَ الدكتور طارق مرحاً مع من في الحافلة من أعضاء مجلس إدارة الجمعية.. وكانَ السائق يتحرّكُ بسرعةٍ كبيرة.. سألهُ أحدهم:

- ألن تتطرّق للتلوّث الأخلاقي في محاضرتك؟

- هذا موضوعٌ شائك وطويل، ربما كانَ الأهم في دراسة البيئة، ولكنَّنا لا نستطيع أن نغوصَ فيه، إنَّهُ كثيرُ التعقيد..

- أعتقدُ أن الصالة مزدحمة تماماً اليوم، الناس ينتظرونك بفارغ الصبر.. أنتَ تنطلقُ في حديثك بحيويّة.. دونَ أن تنظرَ في أوراقك..

صرخَ طارق بالسائق:

- انتبهْ لنفسكَ أيّها السائق، سرعتكَ زائدة عن الحدّ..

قالَ السائق بسخرية:

- خائفٌ يا دكتور؟

- ليس خوفاً علينا، إنَّه خوفٌ على المارّة الذين يهربون من أمامكَ مذعورين..

- يجب أنْ نصلَ مقرَّ الجمعية مبكرين، هذا هو سببُ سرعتي..

- تأخيرُ دقائق، أفضلُ من تأخيرِ عمرٍ بكامله..

همهم السائق من جديد:

- أنتَ خائفٌ فعلاً..

صرخَ به أحدهم:

- انتبه لنفسكَ يا رجل، لا تكن وقحاً.. هل أنتَ ثمل؟

أجابَ ضاحكاً:

- لا.. لستُ ثملاً، شربتُ شيئاً من (الروم).

كانت السيارة تنطلقُ بسرعةٍ كبيرة فعلاً:

- انتبه يا رجل، كدتَ تدهسُ العجوز.. خفّف من سرعتك..

- كدنا نصل.. بضعةُ مئاتٍ من الأمتار..

كانت هناكَ سيارة فخمة أمامهم، وكان سائقها يسير بسرعةٍ أيضاً.. وحدث اصطدامٌ مريع، غمغم طارق وهو يدخلُ في العتمة:

«يا إلهي.. بدأتْ رحلتي الأخرى المجهولة»..

كانَ اصطداماً مريعاً كثرت فيه الضحايا.. وقد شعرت لينا بانقباضٍ

مفاجئ، وقد اقتربت من منزلِ الفتاة.. ولحظَ همام وجومها، فأشارَ عليها أن يعودا ما دامت تشعر بهذا الانقباض، ولكنَّها استمرت في قيادة السيارة، حتى توقفت أمامَ الباب الذي دلَّها عليه.. حاولتْ أن تشدَّ من عزيمتها، وتقابل الفتاة بابتسامة، ونجحت أخيراً، وهي تعبرُ مدخلَ الحديقة وخلفها ابنها همام..

- ما بكِ يا أمّاه؟ وجهكِ مُصفرّ.. أتريدين العودة إلى البيت؟ لستُ متعجّلاً لهذه الزيارة.. يمكننا القيامُ بها غداً أو بعدَ أيام..

- لا يا بُنيّ.. إنَّها رغبةُ والدك ويجب أن أنهي هذا الموضوع اليوم..

- ولكنّكِ متعبة، لستِ على ما يُرام؟

- سأكونُ بخير لا تقلق.. هيّا اضغط جرسَ الباب..

- حسناً كما تريدين..

ضغطَ على زرّ الجرس وبعدَ لحظاتٍ فتحَ لهُ رجلٌ متقدّمٌ بالعمر:

- أهلاً أستاذ همام..

حنَى همام رأسهُ باحترام:

- هذه والدتي، إنَّهُ والد روان يا أمّاه.

- تشرفنا..

- تفضلي يا سيّدتي.. لِمَ لمْ يأتِ الدكتور طارق؟

- لديهِ محاضرة في هذا الوقت، إنّهُ يعتذرُ عن المجيء..

- لا بأس.. سأنادي روان.. إنَّها في الداخل تتابعُ برامجَ التلفاز..

همسَ همام:

- أما زلتِ تشعرين بالتعب؟

- أنا بخير.. يجب أن ننهي هذه الزيارة بسرعة يا بُني.

فكّرتْ قلقة:

«يـا إلهـي مـا الـذي يحـدثُ لي؟ أشـعرُ أنَّ قلبـي ينعـصر، هـل أنـا مصابـة في القلـب أم مـاذا؟».

دخلت روان كانت صبية جميلة.. همستْ بخجل:

- أهلاً بكِ يا سيّدتي.. كيفَ حالكَ يا همام؟

أجابها:

- بخير يا روان..

همسَ إليها:

«ما بكِ كأنَّ شيئاً أصابكِ أنتِ أيضاً؟».

شدتْ على يده:

- سأكونُ بخير.. أتشربين شيئاً يا سيّدتي؟

- أنا في مقامِ والدتكَ يا ابنتي.. لا تدعي الكلفة بيننا.. أنا أمُ همام..

- أنا آسفة..

همسَ همام إلى والدته:

- أترينَ ارتباكها؟

- أحبّ الفتياتِ الخجولات..

سـمعوا صـوتَ سـقوطِ جسـمٍ وصراخِ الأبِ مـن الداخـل، هرعـتْ روان إلى الداخل:

- أبي.. ماذا حدثَ لك؟

كان يتأوهُ باكياً:

- آهٍ.. يا إلهي.. لا.. لا.. آه..

شعرتْ لينا بالقلق فهمست:

- اذهب يا همام.. وانظرْ ما الذي حدث؟

- سأفعلُ يا أمّاه..

خطا إلى الداخل، وتأمّلَ الشيخَ الممدّد وهو يتألّم، وقُرْبهُ ابنتهُ تبكي:

«ما الذي حدثَ للرجل المسكين حتى يتأوه هكذا؟ لا بُدّ أنَّهُ هو من سقطَ جسمهُ بقوّةٍ على الأرض.. وهو يتألّم من ذلك.. مسكين..».

وبعدَ دقائق عادَ همام مكفهرَ الوجه إلى لينا قالَ بحزنٍ يحاولُ أن يخفيه:

- هيّا بنا يا أمّاه.. والد روان يعاني آلاماً هائلة.. يبدو أنّ زيارتنا لم تكنْ موفقة اليوم.. طلبتْ روان لهُ الإسعاف..

- لا بأسَ يا بُنيّ.. سأدخلُ لأطمئنَ عليه..

- لا داعي يا أمّاه.. ليسَ منظراً عادياً.. إنَّهُ يتألّم ويبكي..

- يجب أن أراهُ يا بُنيّ.. هذا لا يجوز..

خَطتْ لينا إلى الداخل واندفعت روان إلى صدرها..

- دعيني أضمّكِ يا أمّاه.. أنا خائفة..

كانَ الشيخُ ممدّداً على السرير فاقدَ الوعي:

- اهدئي يا ابنتي.. لا بُدَّ وأنَّ سقطتهُ كانت خطيرة..

همهمتْ:

- آهٍ.. ماذا أقولُ لكِ؟

همسَ همام متوسلاً:

- أرجـوكِ يـا روان، هـدّئي مـن انفعالـكِ قليـلاً.. قـد تشـعرُ بأنَّنـا نـداري عنها شيئاً..

سمعتُ زمورَ سيارةِ الإسعاف فضمّت روان إلى صدرها..

قال همام مُهدّئاً:

- سيتكفلونَ بوالدكِ يا روان.. هيّا يا أمّاه..

قالت لينا بإصرار:

- يجبُ أن تبقى معها.. سأعودُ إلى البيت..

- ولكن؟

- سأذهبُ وحدي.. هيا يا بُني أدِّ واجبكَ تجاهَ الفتاة المسكينة..

- سأفعلُ يا أمّاه..

- حسناً.. أنبئني بحالته أوّلاً بأوّل..

ورنَّ جرسُ الباب الخارجي، قالَ همام:

- سأفتحُ الباب يا روان.. انتبهي لنفسك يا أمّاه.. لن أتأخّر عليك..

شدّتْ على يده:

- لا يلبثُ أن يعودَ والدكَ من محاضرتهِ..

خرجتْ لينا ورجالُ الإسعاف يندفعونَ إلى الداخل:

- أينَ المصاب؟

- إنَّهُ في الداخل.. حالتهُ سيّئةٌ جدّاً..

- ما الذي حدثَ له؟

همهمتْ روان قلقة، وهي تبكي:

- أصيبَ بذهولٍ وهو يستمعُ لخبرٍ في التلفاز، فسقطَ على الأرض، تبلّغَ إصابة أحدِ أصدقائه بحادثة سيارة..

- هيا لنحملهُ إلى السيارة.. يحتاجُ إلى الأوكسجين.. وجهه يبدو مزرقاً..

كانت تختلجُ، ضمّها همام إليه:

- اهدئي يا روان ما الذي سمعهُ والدكِ من التلفاز؟

- إنَّهُ خبرٌ مزعج.. كما قلت..

- من هو صديقهُ الذي حدثت له الحادثة؟

همهمت باكية:

- أحدُ من يحبهمُ كثيراً.. اذهبْ إلى والدتك يا همام، سأصعدُ في السيارة مع والدي..

- لا.. يجبُ أن أرافقك.. أوصتني أمي بذلك..

فكّرتْ حزينة:

«لو علمتَ الخبرَ الذي أسقطَ والدي على الأرض؟ ماذا ستفعل تلكَ الأم المسكينة؟ - أعانها الله - آه.. وأنتَ يا همام ماذا ستفعل، ووالدك يرقدُ الآن في المشفى بين الحياة والموت؟».

حاولتْ أن تمنعهُ من الصعود معها في سيارة الإسعاف:

- لا داعي لمجيئكَ معي يا همام.. أرجوك..

- لا.. يجب أن أرافقكِ، إنَّها وصيةُ أمّي..

* * *

(5)

قـادتْ لينـا سـيارتها في اتجاه المنزل، ولكنّ حركةَ السـير كانت تشـهدُ ازدحاماً كبـيراً، وبعدَ مسـافةٍ قصيرة، بـدا للينا أنَّ الطريقَ مغلـق في اتجاهِ المنزل..

فعـادت بسـيارتها قليـلاً، أوقفتها إلى جانب الطريق تنتظـرُ أن ينفتحَ الطريق أمـام السـيارات.. شـاهدت العديـدَ من الناس يتدفقون في الشـوارع صـوبَ الطريق المغلـق أمـام حركـة السـير.. فخرجـت مـن السـيارة تسـألُ بعـض الناس عن سـببِ توجّههـم إلى ذلـك الاتجاه..

- إنَّهُ حادثٌ كبير يا سيّدتي، اصطدمت حافلةٌ بسيارة (مرسيدس) فاخرة..

- داخلَ المدينة؟ غريب؟!

- يقالُ إنَّ غالبية ركاب السـيارتين قد ماتوا.. آهٍ يا سـيّدتي من بينِ الضحايا شـخصٌ نحبّهُ كثيراً.. هؤلاء الناس يزحفونَ للاطمئنان عليه.

- غريبٌ أن يحبَّ الناس شخصاً إلى هذا الحدّ؟

- ليـسَ غريبـاً يـا سـيّدتي، كانَ يحـبّ النـاس ويسـاعدهم، ولا أعتقـدُ أن بيتـاً فقـيراً في هـذه المدينـة المزدحمـة، إلّا ويديـن لـهُ بمسـاعدةٍ أو عـون.. بإذنـك..

تركها الرجل:

«لقـد ذهـبَ مسرعـاً ليلحـق برفاقـه.. يبـدو أنَّنـي سـأظلّ محـاصرةً هنـا.. سـأذهبُ إلى عيـادة الدكتـورة هـدى ليسـت بعيـدة عـن هنـا.. أشـعرُ بـدوار،

وصدري يزدادُ ضيقاً.. تُرى كيفَ سارت محاضرة طارق؟ أرجو ألّا يعلقَ في ازدحام السيرِ أيضاً.. يبدو أنّني لست على ما يُرام.. آهٍ يا طارق، ليتني ذهبتُ بصحبتكَ إلى المحاضرة.. رغمَ أنَّني أحببت روان، كانَ من اللازم أن أؤجل الموعد..».

* * *

طرقت باب عيادة هدى ففتحت لها، تأملتها هدى مدهوشة:

- لينا، أهلاً بكِ؟ تفضلي..

- أرجو ألَّا أعطلكِ..

- كنتُ على وشكِ الرحيل، انتهيتُ من معاينة آخر مريض قبل دقائق..

- ويأتيكِ عددٌ كبيرٌ من المرضى النفسيين بالطبع؟

- إنَّهُ عصرُ الضجيج.. من الطبيعي أن تكثرَ الأمراض النفسيّة.. هه.. خيرٌ؟ زيارتك عاديّة؟

- نعم يا دكتورة هدى.. الشارع المؤدي إلى منزلنا مُغلق.. ويُقالُ إنَّ حادثةَ اصطدام سيارتين قد وقعت في منتصفه..

- يا لطيف.. داخلَ المدينة؟ إنَّه أمرٌ نادر..

- وتصوّري أن الناسَ يتدفقون صوبَ مكان الحادث، فهناك رجلٌ يحبونه من بين المصابين، وقالَ لي أحدهم: إنَّهُ رجلٌ غير عادي، كانَ يحبّ الفقراء ويحبونه..

- أيوجدُ مثل هذا الشخص عندنا؟

- والله لا أدري يا دكتورة هدى.. المهم أنَّني استغربتُ تدفقَ أولئكَ الناس

للاطمئنـان عن ذلـكَ الرجل ..

- هل أنهى الدكتور طارق محاضرته؟

- مـا زالَ أمامـهُ بعـضُ الوقـت، لـو بدأهـا في السـاعة السـابعة فلـن ينهيهـا قبـلَ التاسـعة..

- أوصلتهِ بنفسكِ إلى هناك؟

- لا.. ذهـبَ في حافلـةٍ صغـيرة تابعـة لجمعيـة حمايـة البيئـة.. كنـتُ أتعرّفُ إلى الفتـاةَ التـي أحبّهـا همام..

- تبدين مُصفرة الوجه، مُتعبة؟

- منذُ ساعة وأنا أعاني من انقباضٍ غريب.. لم أشعر بمثلهِ منْ قبل..

- تعالي سأعاينكِ..

- لا داعي يا دكتورة.. ربما كانَ مَرضي عُضوياً..

- وإن كانَ عُضوياً أستطيعُ كشفهُ أيضاً.. تفضلي أرجوك..

- حسناً.. كما تريدين..

عاينتها هدى وهي تفكّر:

«قلبـي يحدثنـي أنَّ شـيئاً مُتعبـاً قد حدث، إنَّها تشـعرُ بالخطر، ولا تسـتطيعُ اسـتيعابَ هـذا الشـعور، يجب أن أتأكّدَ أنَّ شـيئاً لم يحدث في أسرتهـا الصغيرة..».

تركـتْ لينـا عـلى طاولـة الكشـف ودخلـتْ إلى مكتبهـا تتصـلُ بصديقـةٍ لهـا سـمعت صوتهـا:

- جيّد أنّني وجدتك في مكتبك؟ لماذا لم تحضري محاضرة الدكتور طارق؟

- آهٍ يا هدى؟ تعرّضَ طارق لحادثة مريعة..

- ماذا تقولين؟

- نعم.. كان سائقُ الحافلةِ مخموراً.. وقد اصطدمَ بسيارةٍ فخمة..

- يا إلهي معقول؟

فكّرت قلقة:

«هذا هو تفسيرُ الانقباض الذي تتعرّضُ لهُ لينا إذن.. ».

سمعت زميلتها صوتها:

- إنّـهُ في المشـفى المركـزي الآن، سـأذهبُ للاطمئنـان عنـهُ بعـدَ قليـل.. هـل أنتظركِ؟

- لا.. لديَّ عملٌ مهمّ أقومُ به الآن..

همستْ إليها عبرَ الهاتف:

- لينا عندي وهي لا تعرفُ شيئاً عن الحادثة..

- أرجو من الله أن يخرجَ من هذه الحادثة بسلام..

وضعتْ السماعة مذهولة:

«إنّهـا الكوابيـس التـي كانَ النـاس يحكونهـا عـن حادثة اصطـدام تحصلُ له، مسـكينٌ الدكتـور طارق..».

عادت إلى لينا مصفرة الوجه:

- هه، ما بك يا دكتورة هدى؟

- لا شيء، لا شيء.. هيا بنا إلى منزلي..

- ربما انفتحَ الطريقُ في اتجاهِ بيتنا، سأذهبُ وأنتظر عودةَ طارق..

- حسناً سأرافقك..

كانـت سـياراتُ الإسـعاف قـد نجحـت في نقـلِ المصابـين في حـادث اصطـدام السـيارتين، ورغـمَ بـطءِ حركـةِ السـيارات الناتجـة عـن الازدحـام المـروري الخانـق، فقـد وصلـت لينـا مـع هـدى إلى المنـزل قُرابـة التاسـعة والنصـف.. كانَ شـعورها بالانقبـاض يـزدادُ، وهـي تفتـحُ البـاب الخارجـي، وليـسَ هنـاك مـن ضـوء داخـل المنـزل، يُنبـئ بعـودة طـارق أو هـمام.. كانت هدى مـتردّدة قلقـة في أن تخبرها بما حـدث ولكـنَّ شـيئاً غريبـاً حـدثَ بعـد دقائـق مـن وصولهـما..

- ألا تتابعينَ برامجَ التلفاز يا لينا؟

- أحيانـاً.. وخاصـةً البرامـج التـي يتابعها طارق عـن البيئة ومشـاكل العصر..

هـه.. هل تريديـن مشـاهدة برنامج معين؟

- لا.. لا.. إنَّهُ سؤالٌ عرضيّ..

وصلَ إليهما صوتُ حركة الباب الخارجي..

- من الذي يزورني في هذه الساعة؟

قالت هدى آملة:

- ربما كان الدكتور طارق أو همام؟

- لا.. لديهما مفاتيح الأبواب الخارجية..

فتحت الباب فرأتْ عجوزاً سمحةَ الوجه تتأمّلها بحنان:

- كيف حالكِ يا ابنتي.. أتسمحينَ لي بالدخول؟

- تفضلي يا خالة..

كانَ وجهُ العجوزِ مألوفاً لديها، أدخلتها إلى حيثُ تجلسُ هدى:

- أنـا آسـفة عـلى هـذه الزيـارة في هـذا الوقـت.. كان من الـضروري أن أراك،

هـه.. لديك ضيفـة أيضـاً.. لا بأس..

- تفضـلي هنـا.. إنَّهـا الدكتـورة هـدى صديقتـي.. إن كانـت لديـك مشـكلة تحـدّثي عنهـا أمامهـا، هـي ليسـت غريبـة عنّـا.. أم ترغبـينَ في رؤيـة طـارق؟

- جئـتُ لأراكِ.. أنـتِ تشـعرين بالانقبـاض، ومتوترة الأعصـاب، ولا تعرفينَ ما السـبب، ولكـن اهدئي قليـلاً واجلـسي إلى جانبي هنا..

- وكيفَ عرفتِ أنّني متوترة ومنقبضةُ الصدر؟

- اجلسي هنا.. ولا تكثري من الأسئلة يا ابنتي..

كانـت العجـوز تمـدُّ يديهـا وتمـرّرُ أصابعهـا حـولَ رأس لينـا وصدرهـا.. كأنَّهـا تسـتخدم طاقتهـا الحيويّـة الكامنـة..

كانت عيناها تلمعان لمعاناً غريباً..

- تحتاجين إلى أعصابٍ قويّة.. قبلَ أن يتصلَ همام بك بالهاتف..

- أشعرُ أنَّني أستعيدُ هدوئي.. لماذا أحتاجُ إلى أعصابٍ قوية يا خالة؟

- اسـتعيدي مـا يُؤمـن بـهِ زوجـكِ مـن أفـكار لهـا علاقـة بالمفاجـآت المُحزنة أحيانـاً.. وكـوني مـع اللـه.. أنـتِ مؤمنـةٌ أيضاً..

«يـا إلهـي أشـعرُ أنَّنـي أطـير.. إنَّنـي أرى طارقـاً، إنَّهُ في مشـفى وحولـهُ بعضُ النـاس، إنَّـهُ مصـاب.. كأنَّهُ قريـبٌ منّي»..

- ستكونين هادئة.. مهما حدثَ.. هه..

«كأنَّ الإشعاعَ ينطلقُ مِنْ أصابعها»..

- إنَّهُ مصابٌ.. الدمُ ينزفُ منهُ .. يا إلهي..

- اهدئي يا ابنتي.. ونامي الآن..

- لا، أرجوكِ يا خالة.. لا أريدُ أنْ أنام..

- تحتاجين إلى الراحة ولو لوقتٍ قصير..

«أشعرُ بالنعاس.. كأنَّ الخدرَ يسري في جسمي..».

نهضت العجوز العجيبة، واتجهت صوبَ الباب، كأنَّها أدّتْ التزاماً فُرِضَ عليها، وهمستْ إلى هدى مودّعةً:

- يمكنكِ الذهابُ يا هدى ستكونُ صديقتكِ بخير.

خرجت العجوز وهدى مدهوشة، ثمَّ وضعت الغطاءَ حولَ لينا في فراشها وهي تفكر:

«يجبُ أن أذهبَ فعلاً للاطمئنان على طارق.. لينا تنامُ بعمق»..

* * *

(6)

كانَ والـدُ روان قـد اسـتيقظَ مـن إغمائـه، وحـينَ رأى هـمام وروان إلى جانبه انحـدرت الدمـوع مـن عينيـه.. كانَ الأطبـاء قـد طمأنـوا الصبيّـة إلى أنَّ والدهـا سـيكون بخـير، وأنَّـهُ اجتـاز المرحلـة التـي شـكّلت خطـراً عليـه..

همسَ الشيخ متألماً:

- لم تخبريه يا روان؟

- عن الحادثة؟ لا يا أبي.. لم أستطع.. أنتَ تبكي..

همهم متماسكاً:

- أنا بخير.. اذهبْ إلى المشفى المركزي يا بُنيّ..

- لماذا؟ ما الذي حدثَ يا عمّاه؟

- والـدكَ تعـرّضَ لحادثـةٍ مريعـة.. رأيـتُ الخـبرَ في التلفـاز، وهـذا هو سـبب سـقوطي وصراخـي.. كانَ خـبراً كالصاعقـة..

- والدي؟

- إنَّهُ مصابٌ إصابات خطيرة.. هيَّا لا تضيّع الوقت..

- والدي؟ يا إله السماوات.. معقول؟

خرجَ همام كالمسوس زائغَ البصر..

همستْ روان:

- كنتُ متردّدة في إخبارهِ، خائفة عليه..

- يجب أن يكونَ إلى جانبِ والده يا ابنتي..

- معكَ حق..

دخل الطبيب منزعجاً:

- ما الذي يحدث هنا؟ يجب ألَّا يتعرّضَ والدك للإجهاد، ليس في حالةٍ جيدة..

- البكاء يُفرّج الكربَ يا دكتور..

- أرجوكَ، حالتكَ ليست على ما يُرام.. انتبهي له يا آنسة.. لا داعي للبكاء أنت أيضاً..

- لا نستطيع أن نكبتَ عواطفنا يا دكتور..

- إنْ كنتِ قلقةً عليه، أؤكّدُ لكِ أنَّ الخطرَ قد زال، لا داعي لإجهادهِ، يحتاجُ إلى من يشدّ أزرهُ..

- فقدَ صديقاً حبيباً.. إنَّهُ يحتاج إلى النوم.. أعطهِ منوّماً، أرجوك..

- لا بأس..

* * *

غَفتْ لينا لدقائق ولم تشعرْ بذهاب هدى والعجوز.. ورأتْ طيفَ طارق وهو يبتسم، كانَ يرتفعُ فوقَ سيارة مهشمة، تدورُ حولها سيارات إسعاف..

ثمَّ انطلق كأنَّهُ يطيرُ في اتجاهها، كانَ يبتسمُ لها بحب، تلك الابتسامة التي تعشقها على وجهه، تقدّم منها ووضعَ يدهُ على رأسها بحبّ فاستيقظت..

* * *

وكانَ همام في المشفى يعاني من الحزن والقلق على والده:

- أليسَ من خبرٍ عمّا يجري في الداخل يا آنسة؟

- ما زالَ الأطباء يتدفقونَ على غرف العمليات..

- وليسَ من خبرٍ عن والدي؟ إنَّهُ الدكتور طارق..

- أنتَ ابنهُ؟ يا إلهي كيفَ لمْ أنتبه للشبهِ الكبير بينكما؟ مع الأسف لا أعرف شيئاً عنه..

- أرجوكِ حاولي معرفةَ وضعهِ وإبلاغي..

- أعدكَ أنّني سأحاول..

«يا إلهي ماذا أفعل؟ الجميع يرفضون الحديث عن أوضاع الجرحى..».

رأى امرأةً عجوزاً تقتربُ منه:

- اهدأ يا بُنيّ.. لا تكن قلقاً متوتراً إلى هذا الحدّ..

«إنَّها تضعُ يدها على رأسي فأشعرُ بالراحة.. إنَّ عينيها تنفذان لأعماقي..».

- أتتذكرني؟ ألمْ ترني مع والدكَ يوماً؟

- آه نعم.. ولكن هذا كان قبل سنوات.. إنَّهُ كالحلم.. من أنتِ يا خالة؟

- حدّقْ بي جيّداً..

- أنتِ جدّتي، ولكن كيف؟ مستحيل! جدّتي ماتت قبل سنوات..

- ستكونُ بخيرٍ يا بُنيّ.. لا تفاجئكَ أخبارُ والدك مهما كانت محزنة..

«يا إلهي، إنَّها تختفي مسرعة..».

صحا على صوتِ الممرضة:

- والدكِ مُصاب بجروحٍ خطيرة يا أستاذ، إنَّهم يحاولون إنقاذه.. ليتني

أعلـم مـا يقومـون بـه مـن عمل..

- حسناً.. ليُعنّي الله..

* * *

وفي تداخـلٍ عجيـب بـينَ العـوالم، كانـت هنـاكَ أطيـاف تتقابـل فيـما بينهـا، وتتحـادث بأصـواتٍ لا تصـل إلى سـمعِ النـاس المجتمعين في قسـم الإسـعاف وخارج المشـفى، كانـت أصواتـاً مـن نـوع خاص..

وفي تلكَ العوالم المتداخلة.. كانَ هناكَ حوارٌ يدورُ بين طيفين..

- كنتَ تتوقع انتقالك إلينا.. أرسلنا رسائلَ كثيرة بهذا الخصوص..

- نعم يا أمّاه.. ولكنّي حزينٌ من أجل لينا وهمام..

سـيمتصان الصدمـة.. هـمام مـا زالَ شـاباً.. وهو بحاجـةٍ إلى أمّـه، وهي تعلم حاجتـه إليها، لذلكَ ستتشـدّد..

- لماذا يجتمعُ كلُ أولئك الناس؟

- إنّهم قلقون عليك.. الفقراء يحبونك يا بُني..

- ليتني أستطيع متابعة تقديم العون إليهم..

- أنسـيتَ لينـا؟ أنسـيتَ ابنـكَ؟ إنّـهُ يشـبهكَ كثـيراً.. ولينـا أيضـاً سـتتابع مسـيرتك..

- يعني أنّني لن أعودَ إلى ذلك العالم يا أمّاه..

- قدركَ أن تبقى هنا..

* * *

القسم الثاني

مخزون الدماغ ينتصر في النهاية

(7)

كانَ الدكتـور يمـان أحـدَ أمهـرِ الاختصاصيـين بجراحـة الدمـاغ، يقـومُ بنوبتـهِ الليليـة في قسـم الإسـعاف في إحدى المستشـفيات الجراحية المتطـوّرة في العاصمة..

- إنَّهم ضحايا حادث مفجع يا دكتور يمان..

- ما أكثرَ الحوادثَ في هذه الأيّام.. يبدو عددهم كبيراً..

- عشرةُ أشخاص، أعتقدُ أنَّ الغالبية في حالةٍ ميؤوس منها..

- وزّعوهـم عـلى الأَسِرّة بسرعـة، وأجـروا لهم الإسـعافات اللازمة، سـأقومُ مع فريـقٍ طبـي بفحصِ حالـة كلّ منهم..

- هل أستدعي الأطباء المساعدين يا دكتور؟

- نعم.. حالة الاستنفار القصوى..

- كلُّ شيءٍ سيكونُ جاهزاً خلالَ دقائق..

وتفقّدَ الدكتور يمان الجرحى، وهمسَ لمساعده..

- يجب معرفة هوياتهم، يبدون في حالة سيئة..

وانبعثَ صوتٌ من الجهاز المعلق على صدره:

- دكتور يمان.. هل تسمعني؟

- نعم يا سيّدي.. أسمعك؟

- سـيقومُ جرَّاح القلب هادي مع طاقمه الطبي بالتوجّه إلى قسـم الإسـعاف

فـوراً.. أحـدُ المصابين هو مسـؤول كبيرٌ في حكومةٍ صديقـة.. يُرجى الانتباه..

- سيكونُ كلُّ شيءٍ على ما يرام لا تقلق..

- أثق بقدرتكَ الطبية الكبيرة، أتمنى لكَ حظاً موفقاً..

فكّرَ يمان شارداً:

«مسؤولٌ كبير في حكومة صديقة!».

- هل تعرفتم إلى هوياتهم؟

- نعم يا دكتور..

- هـل هنـاك شـخصٌ متميّـز بينهـم؟ يُقـال: إنَّ مسـؤولاً كبـيراً في حكومـةٍ صديقـةٍ بينهـم؟

لا أعرف، وإن كنتُ لا أتوقّع ذلك..

- لماذا؟

- الغريب الوحيد بينهم هو ذاكَ الرجل السمين ذو البشرة القاتمة.

- يبدو غريباً فعلاً.. كأنَّهُ من بلدٍ إفريقي..

- ها هي أوراقهُ يمكنكَ رؤيتها..

قلـبَ الأوراق: «يـا إلهـي.. إنَّـهُ أحدُ أهـمّ الشـخصيات الإفريقيـة التي تؤدي دوراً غريبـاً في الأحـداث الحالية..».

حـضرَ رجـالُ الشرطـة وحاولـوا الدخولَ إلى قسـمِ العنايـة المشـدّدة، أوقفهم الدكتـور يمان:

- نعم أيُّها الضابط، ماذا تريدون؟

- نريدُ أن نسجلَ أقوالَ المصابين..

- أغلبهـم في حالـةٍ سـيّئة، ولا أعتقـدُ أنَّ أحـداً منهـم يسـتطيعُ إعطاءكَ شـيئاً مفيـداً، ثـمَّ إن الدخـولَ إلى غرفـة العنايـة المركزيـة الآن غير مسـموحٍ بـه لأحد..

- بينهم مسؤولٌ كبير في دولة إفريقية، كان في زيارةٍ خاصة..

- أعلمُ ذلك، ولكنَ حالتهُ خطرة جداً..

- إذن.. ماذا سأقولُ لرؤسائي؟

- سأبلغكَ عن حالته أوّلاً بأوّل، انتظر في الخارج، أرجوك..

* * *

(8)

عايـنَ الطبيـب حالـةَ المصابـين واحـداً واحـداً، كانـت وفـاةُ سـتةٍ منهـم أمـراً مؤكّـداً، أمَّـا الأربعـة الباقـون فكانـوا يحتاجـون إلى عمـلٍ جراحـي سريـع. ووصـلَ الدكتـور هـادي وطاقمـه الطبـي للمسـاهمة في عـون الدكتـور يمـان ومجموعـة الإسـعاف السريـع..

كانَ الرجـلُ الإفريقـي في غيبوبـةٍ كاملـة، وقـد فحـصَ الدكتـور يمـان دماغـهُ فوجـدهُ مصابـاً إصابـةً مبـاشرة بشـكلٍ لـن يعـودَ فيـه إلى وعيـه أبـداً.. وكانَ هنـاكَ رجـلٌ آخـر ينـزفُ دمـاً، وقـد تمزّقـت الشرايـين الرئيسـية في قلبـه.

وحـينَ اطّلـع عـلى هويتـهِ فوجـئ مفاجـأةً لا توصـف، كان كاتبـاً كبـيراً يحبّهُ الدكتـور يمـان كثـيراً، وكانت كتبهُ تمـلأ واجهات المكتبـات، وقد أحبّهُ القـرّاء لدعوته الإنسـانية الخـيرة.. وفي قصصـهِ ورواياتـهِ خيـالٌ مجنّح وشـاعرية مرهفة..

استغربت الممرضة والمساعدة ذهول الدكتور يمان:

- ما بكَ تقفُ بذهولٍ أمامَ هذا المُصاب يا دكتور؟

- دقّقي في وجههِ جيّداً.. ألا تتذكرينه؟

- يا إلهي إنَّهُ الدكتور طارق، الكاتب المعروف.. يا إلهي.. معقول؟

- تصـوّري، هـذا الكاتـب الذي نحبّهُ جميعاً، نقفُ الآن أمـامَ إصابتهِ عاجزين

عن مساعدته.. حالتهُ ميؤوسٌ منها مع الأسف..

لحقَ به هادي:

- دكتور يمان، لدينا أربع حالات يمكن التفكير في محاولة إسعافها..

- أعرفُ يا دكتور هادي..

- أراكَ حزيناً، هلْ تعرف الرجل؟

- إنَّهُ الدكتور طارق..

- كاتبُ الخيال العلمي؟ يا إلهي.. قابلتهُ العامَ الماضي وسحرني بحديثه..

- جهازُ الحاسوب يؤشرُ أنَّهُ مصاب بإصاباتٍ مباشرة في الشرايين الإكليلية، بل وفي الكبد والطحال والكلية.. يا إلهي..

- ولكن رأسهُ لم يصبْ بخدش، هذا الرأس الذي يحمل دماغاً قدّمَ لنا الكثير من العطاء.. ما زالَ قلبهُ ينبضُ بضعفٍ شديد..

- استنفدَ أربعةَ أكياسٍ من الدم حتّى الآن، نزفهُ شديدٌ جداً..

تنهّدَ الدكتور يمان بحزنٍ:

- لأول مرة في حياتي أقفُ حزيناً أمامَ مصاب، أحبّهُ كثيراً ولا أستطيعُ أن أفعلَ شيئاً لهُ..

عادَ الجهاز يهتزُ على صدره:

- دكتور يمان.. هل تسمعني؟..

- نعم يا سيّدي أسمعكَ..

- هل عاينتَ وهادي حالة المسؤول الإفريقي؟

- نعم.. حالتهُ صعبة للغاية..

- ابـذل جهـداً مضاعفـاً، إنَّـهُ ضيفنـا، يجـبُ أن نُظهـر لحكومتـهِ أنَّ التقنيـة الطبيـة عندنـا ممتـازة..

- سنبذلُ المستحيلَ يا سيّدي..

أقفلَ يمان الجهازَ المعلقَ على صدرهِ وسألَ هادياً:

- ماذا سنفعلُ الآن؟

- سأكشـفُ عـن دمـاغ المسـؤول الحكومـي، قـد أسـتطيعُ أن أفعـلَ له شـيئاً مـع أنّنـي أرى ذلـك غايـة في الصعوبـة..

- هه.. وأنا سأحاولُ المستحيل لمساعدة الدكتور طارق..

* * *

كانَ الدكتـور يمـان يفكّـر وهـو يفتـحُ جمجمـة ذلـكَ الإفريقـي بتاريخـه المخيـف، كان رمـزاً للبطـش والوحشـية ضـدَ خصومـه، ولم يكـنْ يرحـمُ أحـداً.. إنَّـهُ الآن مُلقـى بـين يديـهِ أشـبه بالميـت، أيـن جبروتـهُ وغـرورهُ الآن؟

* * *

- تبدو يائساً يا دكتور..

- الدماغُ مصابٌ إصابة مباشرة في مناطق عدّة.. لا أملَ منهُ أبداً..

- حتى الحاسوب يؤكّدُ أنَّ لا فائدة..

ومن جديدٍ أزَّ الجهازُ على صدرِ الدكتور يمان:

- ما هي الأخبار يا دكتور يمان؟

- الأخبـارُ غـير سـارّة يـا سـيّدي، لا فائدة مـن عمـلِ أي شيء، الدمـاغُ مصابٌ إصابـة مباشرة..

- ماذا تقول؟ طمأنتُ بنفسي حكومتهُ قبل قليل..

- هذا ما جرى يا سيّدي..

- أنا قادمٌ حالاً..

أقفلَ الجهاز، وفكّرَ الدكتور يمان مُحتاراً:

«لقد تسرّعَ في طمأنة حكومة ذلك الرجل المسؤول».

راقبَ الدكتور يمان من حوله، كانَ الدكتور هادي قد يئسَ أيضاً، بدا عليهِ القلق ثمَّ همسَ إلى الدكتور يمان:

- المصابان الآخران بدأت حالتهما تتحسن..

دخلَ أحدُ المساعدين يغمغم مدهوشاً:

- هناكَ جمعٌ حاشدٌ أمامَ المستشفى.. من أجلِ الدكتور طارق..

- بهذه السرعة وصلَ الخبرُ إلى الناس..

- كانَ من المقرّر أن يُلقي محاضرة في جمعية حماية البيئة، ولكنَ سيارةَ النقل التي كانَ يستقلها مع بعض أعضاء الجمعية صدمتها سيارةُ ذلك المسؤول الإفريقي مع مرافقيه الذي كانَ في زيارة خاصة..

- زوجتهُ الجديدة جاءت إلى هنا لتشتري أثاثاً معشقاً لمنزلها..

- يبدو أنَّها لم تسمع بعد بالحادثة..

غمغمَ الرجل من جديد:

- ماذا عن الدكتور طارق؟! رجاني الناسُ أنْ أبلغهم عن حالته الصحية.

همسَ الدكتور يمان حزيناً:

- إنَّهُ في لحظاته الأخيرة، لا تتصوّر كم أشعرُ بالعجز تجاهه.

قال الدكتور هادي:

- حتى عملية تبديل الشرايين لم تنفع، إنَّهُ ينحدر نحو الموت..

تأمّلَ مدير المشفى الجراحي المركزي وجوهَ من حوله ودمدمَ يقول:

- جمعتكم لأمرٍ مهمّ جدّاً، يجب أن نحاول جميعاً إنقاذ ذلك الرجل..

قال الدكتور يمان:

- أنتَ طبيبٌ قديم وجراحٌ بارع، تعلم أنَّهُ لا نستطيع أن نجري أي تعديل في دماغٍ مُصابٍ إصابات مباشرة..

وأكّد هادي:

- صحيح أن باقي الأعضاء سليمة، ولكنَ الدماغ يا سيّدي من المستحيل إصلاحهُ.

قالَ المدير هازّاً رأسهُ:

- وماذا نفعل؟ لقد أبلغنا حكومتهُ أنَّهُ سيصبحُ في أحسن حال، حتى زوجتهُ التي تنتظر على الهاتف أُبلغت أيضاً أنَّ زوجها سيعيش، وأنّنا في سبيلِ علاجِ إصابته..

- لا أدري ماذا أقولُ لكَ يا سيّدي، أعتقدُ أنّكَ تسرعت..

- ربما ولكن تسرعي أتى من ثقتي المطلقة بكم..

- لا نستطيع أن نُقدم على العبث في دماغٍ ممزق..

- قلتَ لي يا دكتور يمان إنَّ اثنين من المصابين أخذت حالتهما بالتحسن..

- نعم هذا صحيح..

- وماذا عن الثالث؟

- إنَّـهُ الدكتـور طـارق كاتـب الخيـال العلمـي المعـروف، أعتقدُ أنكَ سـمعتَ به ؟

- بالطبع، ماذا عنه؟

- مصـابٌ إصابـات قاتلـة في كل المناطـق الحساسـة من جسـمه، فقط رأسـهُ سـليمٌ تماماً..

أشـاحَ الكهـلُ برأسـهِ قليـلاً، وبـدا كأنَّـهُ شردَ عـن الجميـع، ثـمَّ أطلـقَ زفـرةً حـرّى، وانبعـث صوتـهُ المبتهـج:

- وجدتُ الفكرة إذن.. إنَّها فكرةٌ مُدهشة..

- فكرة مدهشة، عن ماذا تتحدث؟

- سوفَ ننقلُ دماغَ الدكتور طارق إلى ذلكَ الرجل، بدلاً من دماغه..

- ماذا؟ ماذا تقولُ يا دكتور؟

- إنَّهُ العلاج الوحيد..

- ولكـن.. مسـتحيل، إنَّـهُ عمـلٌ غـير مـشروع يحتـاجُ إلى أخـذِ موافقـة عائلة الدكتـور طـارق، ثـمَّ وضـعُ عائلـة الإفريقـي بالصـورة، إنَّـهُ عمـلٌ غير عـادي..

- اسـمعوا جميعـاً، لا أحـدَ هنـا خـارج عـن المجموعـة.. إنَّـهُ قـراري، ويجـبُ عليكـم أن تنفّـذوه بسرّيـةٍ مُطلقـة..

- ولكن؟

- لا نقـاشَ في الموضـوع، هيَّـا تعاونـوا جميعـاً في تنفيـذ هـذا الأمـر، لا مجالَ للتراجـع أيضاً..

* * *

(9)

تجمّعَ أعضاءُ الطاقم الطبي حولَ أسرة المصابين:

همسَ الدكتور يمان وهو منزعجٌ قلق:

- أمعقـولٌ؟ أيمكـن أن يُنقـلَ دمـاغ ذلكَ الرجـل النبيل إلى هذا الجسـد الذي لم يعرف صاحبه سـوى القسـوة والوحشـية..

- خفّـف عنـكَ يـا دكتـور يمـان، ربمـا هـو الحـلّ الأمثـل.. قـد يتحـوّلُ الرجـلُ الإفريقـي إلى شـخصٍ آخـر مناقـضٍ لشـخصيته التـي عُـرِفَ بهـا..

- لا أستطيعُ أن أتصوّرَ ذلك..

- ولكـن الدكتـور طارق سـيموت.. مـاذا لو اسـتخدمنا دماغهُ، لكونـه الجهاز الوحيد السـليم مـن أعضائه؟

وهكـذا اسـتنفرَ الطاقـم الطبي بأقصى طاقتهِ.. جاءَ المسـاعد الطبي يسـتأذنُ الدكتـور يماناً:

- هل أُبلغُ الناسَ في الخارج أن الدكتور طارق قد انتقلَ إلى رحمة الله؟

- انتظر ليسَ الآن، علينا أن نستأصلَ دماغهُ أولاً، هذا يحتاجُ إلى وقت..

- حسنٌ، ابنهُ همام في وضعٍ يائس خارجَ غُرفة العناية المشددة.

زفرَ الدكتور يمان بحزنٍ:

- أعانـهُ اللـه وأعاننـا جميعـاً عـلى هـذا المُصـاب.. هيّـا يـا دكتـور هـادي،

المصباح الأخضر يبثُّ الضوء.. كلُّ شيءٍ جاهز للعمل..

- على بركة الله..

* * *

«هأنذا أُقطعُ الأوردة والشرايين التي كانت تشدكَ إلى هذا الجسم الرقيق، ما الذي سيتصرفهُ دماغكَ بعد أن يُنقلَ لذلكَ الرجل.. إنَّهُ يسبحُ في السائل الحافظ حتى يظل في نشاطه، تُرى ماذا يدور فيه الآن؟ هل ما زالت خلاياهُ تعمل؟ أم أنَّ شيئاً آخر طرأ عليها؟ هل غادرتْ روحكَ أيّها الرجل الطيب هذا الجسد بعدما تركتَ فيهِ شيئاً من ذكرياتكَ وطريقة تفكيرك كشحنةٍ ما زالت في هذا الدماغ الذي علمنا صاحبهُ الحب والألفة والنقاء الإنساني الخالص؟».

لاحظَ الدكتور هادي انزعاجهُ:

- دكتور يمان: دعني أساعدكَ في قطع هذه الشعيرات الدموية الدقيقة يبدو عليكَ التعب..

- لا تقلق يا دكتور هادي، أنا بخير، هي ليست أوّلَ مرّة أنقلُ فيها دماغاً..

- ولكن ما نُقل حتّى الآن ليس سوى أدمغة أطفال حديثي الولادة، لم تتوضح بعد ملامحُ تفكيرهم.

- أعلمُ ذلك، وأنا قلقٌ لذلك، أشياءٌ كثيرة مختلفة بين الرجلين..

- أتعتقدُ أنَ العملية ستنجح..

- لا أحد يعلم سوى الله عزَّ وجل نتيجةَ هذه العملية، ولكن هذا ما تريدهُ الإدارة، إنقاذ الرجل الإفريقي بأيَّةِ وسيلة، على الرغمَ من أنَّ هناكَ

حواجـز كثـيرة قـد لا يسـتطيعُ الرجـلُ بدماغـهِ الجديـد اسـتيعابها..

- تقصدُ اللغة والعادات ومواصفات الشخصية السابقة؟

- أشـياءَ كثـيرة لا مجـال للحديـثِ عنهـا الآن.. هـه.. انتهينـا الآن مـن قطـع كل مـا يَربـط الدمـاغ ببـدنِ الدكتـور طـارق.. بـدأت العمليـة الأهـم.. سـوف أنزع دمـاغ الرجـل الإفريقـي، المهشـم تماماً، بـكلّ حذرٍ وانتبـاه، وأقطعُ أوردتـهُ وشرايينهُ وشـعيراته الدمويـة في الأمكنة نفسـها..

- لقد برمجتُ العقل الإلكتروني ليساعدكَ في العملية بدقة..

- توكلنا على الله.. يا رب..

اسـتغرقت العمليـة سـت عـشرة سـاعة كاملـة، كانَ الدكتـور يمـان يقـومُ فيهـا بربـط الشرايـين والأوردة والشـعيرات الدمويـة، ثمَّ الأعصاب بدقّة مدهشـة، بـدأت العمليـة في السـاعة الحاديـة عـشرة والنصـف في تلـكَ الليلـة وانتهـت في الخامسـة والنصـف بعـد ظهـر اليـوم التـالي، كان الجراحـون المسـاعدون ليـمان يقومـونَ بأعمالهـم تكملـة للعمـلِ الـذي يقومُ بـهِ، وخـلالَ تلكَ الفـترات الصغيرة كان يرتـاح.. وحـينَ انتهـت العمليـة أخضـعَ الدمـاغ الجديـد لصدمـة كهربائيـة وبـدأ يتدفـقُ الـدم المنتظـم إليه، والأجهـزة تتذبـذب منحنياتها الجيبيـة، ونقاطها الضوئيـة المتناوبـة وانتظـرَ الجميـعُ الرعشـةَ الأولى في الجسـدِ الجديـد.

جاءَ أحدُ المساعدين يلحُ على الدكتور يمان:

- ما زالَ هـمام ينتظرُ خبراً عن والده..

سـأخرجُ لأبلغـهُ الخـبر.. سـأغيبُ لدقائقَ فقـط.. ليتـولَّ الدكتور هـادي عنّي الاهتـمام بالمُصـاب هـذه الفترة..

- لا تقلق يا دكتور..

كانَ هـمام متعبـاً دامعـاً يتمـشى أمـامَ مدخلِ قسـمِ العناية المشـددة، اندفع نحو الدكتـور يمان:

- قلْ لي يا دكتور حالة والدي خطرة لهذه الدرجة؟

- أنـا آسـفٌ أن أبلغـكَ إنَّهـا أخطـرُ مـن ذلكَ بكثـير.. والـدكَ يا أسـتاذ همام، قـد انتقـلَ إلى رحمـةِ اللـهِ الآن.. تقبّـل التعـازي بهذا المصـاب الأليم..

كأنَّما صُعق الشاب:

- ولكن..

- بذلنا أقصى ما نستطيعُ من جهدٍ، ولكنَّها إرادةُ الله..

- لا أستطيعُ أن أصدِّقَ يا إلهي كانَ ينبضُ بالمرح والحيوية أمس..

- إنّهُ حزنٌ لنا جميعاً، كُنّا نحبّهُ وكانَ بالنسبة إلينا الأبَ والمُرشد والصديق..

- كيفَ ستتحمل والدتي الخبر يا إلهي؟

- خفّف عنكَ.. لا رادَّ لقضاءِ الله..

- معـكَ حـق.. كان إيمانـهُ باللـه ثابتـاً لا يتزعـزع، صمـتَ للحظـات وهـو يكفكـفُ دموعـه، ثـمَّ قـال: هـلْ أسـتطيعُ اسـتلامَ الجثة؟

- سـأقومُ بـكل الإجـراءات اللازمـة لذلـك.. أزَّ الجهـازُ عـلى صـدرهِ، وسـمعَ صـوت مديـر المشـفى:

- دكتور يمان.. هل الرجلُ بخير؟

- نعم يا سيّدي أعتقدُ أنهُ بخير..

- هل استيقظَ؟

- ليسَ بعد، نحنُ بانتظار عودتهِ لوعيهِ..

- كنتُ واثقاً من نجاحكم، تمت العملية بنجاحٍ إذن..

- أعتقدُ أنّها نجحت.. اسمع يا سيّدي.. ابن الدكتور طارق، هام موجودٌ إلى جانبي يريدُ تسريعَ الإجراءات باستلام جسدِ والده؟

- أنهِ الإجراءات بنفسكَ وليُودّعَ الوداعَ اللائق..

- عن أيّ رجلٍ كانَ يتحدّث؟

- إنَّه مسؤولٌ إفريقيّ كبير، أصيبَ في الحادثة أيضاً..

- ولم يسألْ أحدٌ عن والدي؟

- لا تبتئس، والدكَ كانَ لكلّ الناس الذين يُحبّونهُ، لم تكنْ لهُ صداقات مع كبار القوم كما تعرف..

- معكَ حق.. أرجوكَ يا دكتور لننهِ الإجراءات بسرعة.. يا إلهي كيفَ سأبلغُ أمي الخبر؟ إنَّها تنتظرُ على أحرِّ من الجمر..

- ليعنها الله..

كانت السيدة لينا قلقةً وهي تروحُ وتجيء، في الصالة الواسعة، وعيناها مُسمرَتان على جهازِ الهاتف، لم يغمضْ لها جفن منذُ أن جاءها الخبر، استعرضتْ حياتها مع طارق، كانتْ حياةً حافلةً بالحبّ والإخلاص والاحترام..

كانَ فياضَ المشاعر تجاهها، تزوجا بعدَ قصةِ حبّ طويلة.. وظلّ صدرهُ ملاذها في أوقات المحن..

قلقتْ على تأخّرهما عن الاتصال بها.. هتفتْ للمستشفى، فلم تتلقَ سوى الردّ المعهود ما زالَ في غرفةِ العمليات..

«يـا إلهـي، يعنـي ذلك أنَّ إصابتـهُ خطيرة، مـا دامَ الجراحـون كلّ هذه الفترة يحاولـونَ إنقـاذه.. ويـلي عليـك يـا طـارق، كـم تتعـذب الآن؟ أرى طيفـكَ الهـادئ يتخايـلُ أمامـي وهـو يبتسـمُ، هل يعني ذلـكَ أنكَ اجتـزتَ مرحلةَ الخطـر.. لم تكنْ تخـاف مـن المـوت، ولم يكـن المـوتُ يشـكلُ لـكَ بُعبعـاً، بـل كنـتَ تتحـدّثُ عنهُ في قصصـكَ ورواياتـكَ كأنَّـهُ حدثٌ عـادي..».

كأنَّما أتاها صوتهُ من رَحِم الغيب:

- نحنُ ضيوفٌ على هذهِ الحياة بقدر ما نعطي بقدر ما نكون فاعلين..

- يا إلهي.. أشعرُ بصوتهِ يتغلغلُ في أعماقي..

- لينـا حبيبتـي.. مهـما حـدثَ لي لا تحـزني.. لا تقلقـي سـتظلُّ روحـي قريبـةً منك..

«كانَ يضحـكُ وهـو يـردّدُ هـذه العبارة، لماذا أسـتعيدها الآن، هـل حدثَ لهُ مـا يرعبني؟».

وانبعثَ صوتُ الهاتف قربها:

- ألو همام.. أينَ أنتَ يا حبيبي؟ كيفَ حالُ والدكَ؟

- أمّي.. أرجوكِ.. اهدئي..

غمغمت :

- مات أبوك يا بُنيّ.. أليسَ كذلك؟

- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون..

- همام حبيبي.. أحتاجُ إلى صلابتك..

شرق بدموعه:

- أنا آسفٌ يا أمّي..

- أنا قادمةٌ لإحضارهِ إلى هنا..

وضعت السماعة وانفجرت تبكي:

«يـا حبيبـي.. كيـف أسـتطيعُ العيـشَ مـن بعـدك؟ مـن سيبتسـمُ في وجهـي حـينَ أغضـب؟ ومـنْ سـيكفكفُ دمعي حينَ أبكي؟ ومن سـأرتاحُ على صـدرهِ لأغوصَ في خيالاتـه عـن العـوالم البعيـدة وهـو يحـكي بلغةِ الإنسـان الطامـح للخير؟».

* * *

(10)

وانتقـلَ خـبرُ وفـاة الدكتور طارق إلى النـاس المجتمعين في الخـارج، وتدفقت أعـدادٌ جديـدةٌ منهـم إلى المستشـفى، مـا لبثـت هـذه الأعـداد أن تكاثـرت إلى حـدّ بعيـد لدرجـةٍ أذهلـت القائمـين على العمـل هناك..

وفي غرفـة العناية المشـددة ارتعش جسـدُ الرجل الأسـود مُنبئـاً بعودة الحياة إليه مـن جديد..

* * *

دخلَ الدكتور يمان غرفة المسؤول عن الجثث:

- أرجوكَ أنهِ ما بيدكَ، يجب أن نسلمَ الجُثة إلى أهلها..

- لماذا أنتَ متعجلٌ يا دكتور؟ غداً صباحاً سنسلمها، لماذا الآن؟

- سـنضعها في الـبراد حتـى لا تتفسـخ، وفي الصبـاح يتـم تسـليمها بالأصـول المعتـادة.. مثلهـا مثـلُ غيرهـا مـن جثـث المـوتى..

قالَ بغضب:

- أمرَ المدير أن أنهي كلَّ شيءٍ الآن، أرجوك..

لمـاذا الغضـب يـا دكتـور؟ آسـف لا أسـتطيعُ اسـتثناءها، هنـاكَ سـتّ جثـثٍ أخـرى أيضاً..

- أعـوذُ باللـه، كانَ يرتعـشُ مـن الانفعـال يجـب أن أنهـي هـذه العمليـة بسرعـة، لا أحـد يجيـبُ عـلى خـط المديـر.. يـا إلهـي مـاذا أفعـل؟..

سألهُ همام:

- ما الذي يجري يا دكتور؟ ما الذي يقوله هذا الرجل؟

- لا تقلق سينهي المعاملة رغم أنفه..

عادَ الرجل إلى وقاحته:

- لماذا أنتم متعجلون لاستلام جثة الميت يا أستاذ؟

- ماذا؟

- ماذا ستنفعكم جثته؟ غداً صباحاً سنسلمها لكم، إنَّه رجل عجوز..

صرخ همام:

- احترم نفسكَ، وتكلّم بأدب..

- تعـالَ علّمنـي الأدب يـا ولـد.. لـن تسـتلمَ جثتـه، ولـو وسـطت الأمـم المتحـدة نفسـها، مـا رأيـكَ هـه؟ خُـذ أوراقـكَ وانـصرف مـن هنـا..

همسَ الدكتور يمان:

- بالغتَ كثيراً أيُّها الرجل..

دكتـور لا تجعلنـي أفقـدُ احترامـي لكَ، ولمْ أتلـقَ أيَّ أمرٍ بخصوص تسـليم جثة معينة..

خرجا من غرفة المسؤول:

- أسـتاذ هـمام أرجـوكَ هـدّئ نفسـكَ، إنَّـهُ رجـلٌ تافـه، لـن يفعـلَ سـوى ما يريـدهُ إلا إذا أتـاهُ القـرارُ مـن رؤسـائه..

- ولكنني سمعتُ المدير بنفسي يقول لكَ: "أنهِ الإجراءات بنفسكَ وليودعَ الوداع اللائق..".

- كانَ هذا كلاماً غيرَ مرفقٍ بقرارٍ خطّي..

- يا إلهي ماذا أفعل؟ أمّي قادمةٌ الآن..

- إن شاءَ الله ستنتهي هذه الرتابة المزعجة قبل قدومها..

* * *

ووسطَ الجمعِ الحاشد خارج المستشفى دارت الحوارات التالية:

- آهٍ يا أمّي لا أكادُ أتصوّرُ أننا فقدناه..

- وماذا أقولُ لكِ يا سلام يا ابنتي؟ لولا هذا الرجل لما كنّا في أحسن حال بعدَ وفاة والدك.. كلّ ما كانَ يردنا من مالٍ يتدفقُ علينا شهرياً، كانَ منهُ.. لمْ أكن أعرفُ ذلكَ في البداية، كانَ يقولُ: إنَّهُ دينٌ لوالدكِ عليه.. ولكني عرفتُ الحقيقة متأخرة، ماتَ والدكِ والديون تتكاثرُ عليه..

- معقول يا إلهي.. لماذا يفعل ذلك؟

كتبهُ تدرُّ عليهِ دخلاً جيّداً، ولكنّهُ كانَ يعيشُ حياةً بسيطة، لأنَّ كلّ ما كان يحصّلهُ كانَ يساعدُ به الناس.. تصوّري، لم تنقطع مساعدتهُ حتى أصبح إخوتكِ لهم القدرة على مدّ يدِ العون لنا..

- كنتُ أرى فيه الأب والصديق.. ما لقيتهُ يوماً إلّا وهو يبتسمُ ويشجعني على دراستي، لولاهُ يا أمّي ما عرفتْ مقالاتي طريقها للنشر..

- رحمهُ الله.. وأعانَ زوجته.. قلبي عليها فقدتهُ قبلَ الأوان..

- ما الذي أخّرَ خروجَ الجثمان؟

- الإجراءات يا صاحبي..

- حتى وهو يغادرنا إلى الأبد؟

- نعم..

وكانت السيارة تقتربُ تحملُ لينا زوجة الدكتور طارق:

- يـا إلهـي.. إنَّهـا زوجتـهُ.. أعانـكِ الله يا سـيّدتي.. واللـه كنتُ أحبّـهُ أكثر من كل إنسـان.. لـولاهُ لمْ يعـش ابني.. دفـع مصاريف عمليتـه الجراحية..

- وأنـا تبـتُ عـن جرائمـي بفضلـهِ.. كفـرتُ بـكلِّ شيء حتـى سـمعتُ حديثهُ عـن حـبّ الإنسـان لأخيـه، مـسَّ بحديثـهِ شـغافَ قلبي..

- والله إنَّكَ تستحقّ منّا أكثرَ من الحزن، أيُّها الرجل العزيز..

- أرجوكم يا جماعة.. افسحوا الطريق للسيّدة..

شعرتْ لينا بالدمع يتفجرُ في عينيها:

«هـل أسـتطيعُ كبـحَ نفـسي عـن البـكاء وأنـا أرى هـؤلاء البسـطاء يتجمّعون مـن حـولي يبكونـك يـا طـارق.. اندفعـوا من كل صـوب منـذُ أن سـمعوا برحيلك يا حبيبـي.. يعزّينـي بـك هؤلاء النـاس الذين يحبونك بصـدق.. وكنـت تحبّهم بصدق أيضاً»..

- تعالَ بُنيّ نساعدُ السيدة في شق طريقها إلى الداخل..

- أعانها الله على هذا المصاب..

* * *

(11)

أمّـا زوجـةُ الإفريقـي واسـمها سـولا فقـد اطمأنـت لحديـث مديـر المشـفى معها بالهاتف، إنَّ بوسـادا زوجها الرجل القوي سـيعيش وسـيمارس حياتهُ العادية، وإنَّ التقنيـة الطبيـة في هـذه البـلاد، ورغـم خطـورة الحـادث قد نجحـت في إنقاذه بمعجزة..

أخـذتْ سـولا تتذكـر أيامها معـه، كانت مضيفـة طيران تعملُ عـلى الخطوط الجويـة، حـين قابلتـهُ في أحدِ الأيّـام، وهو يطيرُ إلى بلد آخر، تلقـت أوامرها بالعناية بـه جيّـداً.. وقد شـعرت أنَّهُ يسـتلطفها، ونفذت كلَ رغباتهِ بدقةٍ شـديدة..

وفي نهايـة تلـكَ الرحلة التي اسـتغرقت خمس سـاعات، طلـبَ منها زيارتهُ في مكتبـهِ وشـيئاً فشـيئاً وجدت نفسـها تتورطُ بعلاقـةٍ معه.. وحينَ أخبرتـهُ أنَّها حامل، أحـضرَ طاقـماً طبيـاً خصيصاً لإجهاضهـا وبعدَ أقل من عـام تزوجها..

كانـت سـعيدة جـداً معـه، كانـت تعيـش كأمـيرة حولهـا الخـدم والحشـم، ورغـم أنَّهـا كانـت تعلـم أنَّها الزوجـة الثالثة لهُ، فقـد كانت متأكدة أنَّهـا الأقرب إلى قلبـه، وأنَّهـا سـتظلُ كذلـك مـا دامَ جسـمها يحتفـظُ بنضارته وشـبابه..

وفي أحـدِ الأيّـام، اسـتدعاها إلى مكتبـهِ الفخـم، كانت أول مرة تـزورهُ فيها في مكتبه بعـد زواجهما:

- اسـمعي يـا عزيـزتي، أراكِ تعاملـين مـن حولكِ معاملـة الأصدقـاء، تتلطفين

- كيف يا بوسادا؟

- أنتِ زوجتي، أنا أقوى رجل في البلد، الكلّ يخضع لي، إنهم كالكلاب يتسابقون لإرضائي والخوف والرعب يأخذُ بهم.. أريدُ منكِ أن تغيّري معاملتكِ لهم، إنّهم عبيدٌ لكِ، الخادمة الخاصة، ومدبرة المنزل، والسكرتيرة الخاصة، والطباخ، وعامل الحديقة والبواب والخدم الآخرون..

- لا أرى حاجةً لذلك.. إنَّهم ينفذون أوامري بدقة وسرعة..

ارتعش جسده الغاضب:

- سولا أنتِ زوجتي، وأريدكِ أن تكوني مثلي في القوة والبطش والمعاملة القاسية، أفهمتِ؟.. لا مكانَ للّطافة هنا، لطافتكِ ورقتكِ أمامي ومعي، وليسَ مع الآخرين.. أفهمت؟

- كما تشاءُ يا حبيبي.

تنهّدَ بارتياح وصرفها لتعود إلى المنزل بسيارتهِ الفخمة..

أتتها خادمتها ذاتَ يومٍ أيضاً:

- سيّدتي.. هناكَ امرأة تريدُ رؤيتك، إنَّها تبكي في الخارج..

- ماذا تريد؟ لستُ مستعدة لاستقبال أحد..

- تقولُ إنَّها على معرفةٍ وثيقة بوالدتك.. وقد أرسلتها إليك..

فكّرتْ:

«إنَّها قادمةٌ من مسافةٍ بعيدة إذن، أوّلَ مرّة ترسل أمّي أحداً إليّ.. يعني أنّها رضيت عنّي أخيراً.. أرجو أن تكون المشكلة بسيطة، قد يغضب بوسادا

أشارت إلى الخادمة أن تدخلَ العجوز التي دخلت متثاقلة.

- ادخلي.. السيّدة هنا..

- آهٍ يا سولا يا ابنتي، أنا أموت، وليسَ سواكِ من ينقذني..

- اتركينا وحدنا وأغلقي الباب..

- كما تشائين يا سيّدتي..

أجلست سولا صديقة والدتها العجوز:

- اهدئي وأخبريني بالقصة..

- ابنـي يـا سـولا، أتتذكرينه؟ فينري صديـق طفولتك.. قبضوا عليهِ منذُ شـهر، ولم نعـدْ نسـمعُ عنـه شـيئاً، لم نـترْك قِسـماً للشرطـة إلّا وسـألناه، لا أحدَ يعـرفُ عنهُ شـيئاً، أرجـوكِ، زوجك أقوى رجـل في البلاد..

- وماذا فعل فينري؟

- كان في مظاهـرة، طيـش الشـباب كـما تعرفـين، قبضـوا عليـه مـع رفاقـه وأخـذوه..

- مظاهرة؟ لماذا؟

- طيشُ الشباب يا سولا، يريدون الديمقراطية، إنَّهم مجانين..

- آهٍ يا خالة، لا أدري ماذا أقولُ لكِ.. سـأحاولُ أن أكلّمَ بوسـادا، إنَّهُ مشـغولٌ هـذه الأيّـام، وبالمشـقةِ أراه، الوضـع ليـس مسـتقراً، بوسـادا يتحمّـلُ العـبءَ الأكبر في إدارة شـؤون الحكم..

- أرجـوكِ يـا ابنتـي، أنـتِ الأمـل الوحيـد لنـا في إنقاذ وحيدنـا.. أمّـكِ ترجوكِ

أيضاً أن تساعديني؟

- أمي؟ كيفَ حالها وحالُ أبي وإخوتي؟

- بخير، وإن كانت عاتبة عليكِ بعضَ الشيء..

- لماذا؟ لأنّني تزوجتُ بوسادا دونَ أنْ أُعلمَ أحداً من أهلي؟

- بالطبع يا ابنتي.. أنتِ الابنةُ الكبيرة، وكنتِ أملهم في مساعدة إخوتك بمصاريف الدراسة..

- إذن، لا يُرسل إليهم بوسادا المالَ كما وعدني..

تجاهلت العجوز ما قالت سولا:

- أرجوكِ يا ابنتي، هل نأمل بعودة فينري إلينا؟

- سأحاولُ يا خالتي..

دخلت الخادمة مذعورة:

- سيّدتي حضرَ سيّدي الآن.. سيارتهُ تتوقّفُ أمامَ الباب..

- حسناً، أخرجيها من البابِ الخلفي، وحاذري أن يراها..

- سأفعلُ يا سيّدتي.. هيا بسرعة..

- دعيني أقابلهُ يا سولا قد يُشفقُ عليّ..

- تحركي بسرعة يا خالة، سيغضبُ إن رآكِ هنا.. هيا..

فكّرتْ سولا خائفة: «أرجو أن تنجحَ في إخراجها قبلَ أن يدخل»، ولكن صوته الصارخ الغاضب وصل إليها:

- تعالي هنا.. من أنتِ وماذا تفعلين هنا؟

همستْ أم فينري بذعر:

- كنتُ عندَ السيدة..

- صحيح يا سولا؟ ماذا كانت تفعل هذه المرأةُ عندك؟

- إنَّها إحدى جاراتِ أهلي، أتتْ لتزورني..

- تزورك؟ هه، دونَ علمي أيضاً..؟

- لم يكن هناكَ مجالٌ لإخبارِكَ، قبل نصفِ ساعة أتتْ تطلبُ رؤيتي..

- لماذا؟

- زيارة عادية..

- يا سيّدي جئتُ أتوسّلُ إليها أن تتدخلَ من أجلِ ابني، قبضوا عليهِ منذُ شهر ولم نسمع عنهُ شيئاً، أنتَ القويّ الذي باستطاعته فكّ الحبلِ عن رقبةِ المشنوق..

- وماذا كانَ يفعلُ ابنكِ حتى قبضوا عليه؟

- طيشُ الشباب يا سيّدي، كانَ ورفاقهُ في مظاهرة..

فكرتْ سولا مرعوبة:

«لقد تعجلتِ يا خالة ما كانَ يجب أن تقولي ذلك.. يا إلهي، ماذا سيفعل؟ يبدو غاضباً»..

- مظاهرة ، طيش الشباب..

صرخَ بقوّةٍ بخدمه:

- ألقوا هذه المرأة خارجاً بسرعة..

اندفعَ الخدمُ يحيطونَ بالعجوز، انهارت سولا، وسقطتْ على ركبتيها:

- بوسادا، أرجوكَ أشفقْ على المرأة، إنَّها صديقةُ أمي..

ولكنهُ تابعَ صراخهُ:

- هيا تحركوا ألقوا هذه المرأة، وإن أتتْ بمقاومةٍ تخلصوا منها إلى الأبد.. هيا..

- أمركَ يا سيّدي..

حملوا العجوز بخشونة خارجاً، وأمسكَ بوسادا رقبةَ سولا بغضب:

- قلتُ لكِ ألفَ مرة، يجب أن تنسي أهلكِ، إنَّهم لا يشرفونك.. إنَّهمْ حثالة، وابنُ هذه المرأة سينالُ عقاباً شديداً على استهتاره.. كانَ في مظاهرةٍ إذن؟ طيشُ الشباب؟

همهمت باكية:

- ما أقساكَ يا بوسادا؟

صرخَ منفجراً:

- وإذا لم تصبحي قاسيةً مثلي سألقيكِ للكلاب..

ولكنه بعدَ خروجهِ أرسلَ إليها باقةً من الزهر، ثمَّ أرسلَ الوصيفة لاستدعائها إليه وانهالَ عليها بالقبل.. طالباً منها نسيانَ ما جرى، وأن يعودا لحياتهما من جديد، فهي أميرةٌ، ويجب أن تعاملَ من حولها كأميرة، زوجها أقوى رجل في البلد، ترتجفُ أفئدةُ الناسِ من سماع اسمه..

وبالطبع لم تعدْ تذكرُ له ما حدث، وفي الخفاء علمتْ أنّ جارتهم في المدينة البعيدة – صديقة والدتها - قد قُتلت بحادث سيارة، وشُنقَ ابنها..

ورغمَ ذلكَ شعرت أنَّها عبدةٌ له، تُلبّي رغباته وتصفحُ عن أفعالهِ الشيطانية.. كل تلك الذكريات انفلتت من رأسها وهي تنتظرُ خبراً عن

زوجها، متسمرةً قرب الهاتف، الذي انبعثَ رنينهُ فجأة:

- ألو نعم، مَن المتكلم؟

- أريدُ أن أبلغك يا سيّدتي، أنَّ زوجك قد استيقظ من غيبوبتهِ وهو في أحسن حال..

- هل أستطيعُ أن أزورهُ؟

- نعم.. يمكنكِ زيارتهُ في الصباح.. سأحضرُ بنفسي لمرافقتكِ إلى المستشفى..

- شكراً لك.. شكراً لكم.. وضعت السماعة بارتياح «آهٍ كمْ كنتُ أشعرُ بالخوفِ عليه، سيشمتُ بي الجميع، لو عدتُ إلى البلاد، أرملةَ أقوى رجلٍ ماتَ بحادثِ سيارةٍ عرضي في دول أجنبية..».

* * *

(12)

وفي تلـكَ الدولـة الإفريقيـة، كانَ الخـبرُ قـد بُـثَّ عـبر وسـائلِ إعلامهـا دونَ تعليـق بانتظـار إسـعافِ المصـاب..

ولكـنَ عامّـةَ النـاس تقبّلـوا الأمـرَ بفـرح، وتمنّـوا أن يتخلصوا من ذلـكَ الرجل السـمين قـوي الجسـم الـذي يصـلُ سـوطهُ إلى أقـصى الأريـاف.. يجلدهـم ويبكيهم ويذلهم..

قالتْ أم سولا لزوجها شامتة:

- أسمعتَ يا ديبار، صهركَ الملعون، أصيبَ بحادثٍ ويكادُ يموت..

- لعنـهُ اللـه.. أتمنـى أن أسـمعَ خـبرَ موتـهِ.. لأرى تلـكَ الابنـة الضالـة ذليلـةً مطعونـةً في صميمهـا وقـد خرجـتْ عـن طاعتنـا ونَبَذَتْنَـا..

- سـيموتُ بجريـرة أولئـكَ الضحايـا الذيـن فتـكَ بهـم دون شـفقة، حتـى أم فيـري المسـكينة لم تسـلمْ مـن أذاه هـي وابنها.. رحمهـا الله كانت صديقـة طيبة..

- وبوسادا شنقَ ابنها هكذا.. نكايةً بذهابها لتوسّط ابنتك في العفو عنه..

- آهٍ مـن تلـكَ الابنـة العاقـة، لم أتصـورْ في حيـاتي أن تتركنـا هكـذا نُقـاسي الأمرّيـن في البحـث عـن لقمـةٍ نقتـاتُ بهـا، ومصاريـف مـن أجـل مـدارس الأولاد..

- كانَ لا بُـدّ أن نُخـرجَ الكبـار منهـم مـن المدرسـة، ليقومـوا بـأيّ عملٍ يسـترُ معيشـتنا وكفافنـا.. آهٍ كـم كنـتُ أحـبُ تلـكَ الفتـاة، كانـت أكـثرَ مـن ابـنٍ لي، هه..

هـذهِ هـي الحياة تقلـبُ لنـا ظهرهـا أحياناً..

- قد تعود إلى وعيها بعد موتِ ذلكَ الوحش؟

- أتعتقدين أنّني سأسامحها عندَ ذلك؟ لا والله لن أدعها تطأُ عتبةَ بيتي..

وفي المشـفى كانـت المحـاولات تجري لإخـراج جثمان الدكتور طـارق، بعد أن دخلـت لينا وسـطَ صمتِ احـترام الناس..

وحـينَ حـضرَ المديـر ليطمـئن عـن الرجـلِ الإفريقـي.. ورأى ذلـكَ الجمـع الحاشـد همـسَ لسـائق سـيارته:

- ما هذا؟ لماذا يجتمعونَ أمام المستشفى هكذا؟

- يريدونَ وداعَ جثمان الدكتور طارق، كانوا يحبونه يا سيّدي..

- أطلقْ زمورَ سيارتك وحاول شقّ طريقكَ بينهم لتعبرَ البوابة..

(إطلاق زمور سيارة)..

- يبدو ذلك مستحيلاً يا سيّدي..

ولكنَ بعضاً من الحشد عرفوا سيارةَ مدير المستشفى فاندفعوا صوبها..

قال أحدهم:

- لمـاذا يـا دكتـور أخّرتـم إخـراجَ الجثـمان، منـذُ سـاعات ونحنُ ننتظـر، حتى زوجتـهُ دخلـت منـذُ أكثر مـن سـاعة ولمْ تعد..

همس السائق:

- قلْ لهم كلمة يا سيّدي.. عِدهم بأنكَ ستحلُ المشكلة..

وهمس آخر:

- إنَّهُ يُرخي الستائر لا يريدُ رؤيتنا أيضاً..

- أهذا ما علمتكَ إياهُ مهنة الطب يا دكتور؟

ثم غمغمَ ساخراً:

- إنَّهُ يتبوّأ منصباً الآن، نسي الطب، ونسي مشاعرَ الطبيب..

- يبدو رجلاً أخرق سنقلبُ لهُ السيّارة..

همسَ السائق من جديد يتوسل:

- أرجوكَ يا سيّدي هدّئهم..

- لن أرضخَ لهؤلاء الرّعاع..

- إنَّهم يحيطونَ بالسيّارة، يحاولون قلبها..

- سأستدعي الشرطة لتتولى أمرهم..

- لا داعي لذلكَ، كلمةٌ منكَ تحلّ المشكلة..

وبجهاز اللاسلكي اتصل بالشرطة..

- أنا مديرُ المستشفى المركزي لجراحة الأعضاء، الناس يتجمّعون أمام المستشفى يعطّلون عملنا، أعدادهم تتزايد..

سمعَ الصوت المخنوق «سنرسلُ دوريات في الحال» وازدادت جمهرةُ الناس حول السيّارة..

- لا تدعوهُ يدخل، حركوا السيّارة..

- سنقلبُ لهُ السيّارة ما دامَ يقابلنا بالصمت والهروب..

من جديدٍ همسَ السائق:

- أرجوكَ يا سيّدي حتى لو وصلت الشرطة سنكونُ في حالةٍ يُرثى لها..

فتح النافذة وصرخ:

- سأريكم أيُّها الأنذال ابتعدوا عن السيّارة..

أجابهُ أحدهم:

- إنَّكَ أحمقٌ أيُّها الرجل، ستندمُ على هذا الكلام..

وقالَ آخر:

- دونَ مناسبة تنعتنا بالأنذال؟

وأتت السيّدة لينا، فسحوا لها طريقاً..

- أرجوكم يا جماعة اتركوا السيارة.. سيقومُ المدير بحل المشكلة..

- أوقفوا ما تفعلون، السيّدة ترجونا أن نهدأ..

- لا بأس يا سيّدتي يجبُ أن نصبرَ حتى يدخل..

* * *

(13)

علّقَ الدكتور هادي:

- تصوّر يا دكتور يمان، طلبوا منهُ بلطف حلّ المشكلة، ولكنّهُ نعتهم بالكلاب، وأغلقَ النوافذ والستائر، فغضبوا غضباً شديداً.. حكى لي أحدهم ذلكَ وهو يرتجف..

- لا بأس، افسحوا الطريق للسيارة الآنَ، إنَّها تدخلُ البوابة..

- لا تعلم يا بُنيّ كمْ أشعرُ بالإكبار لموقفكَ..

- كان أباً لنا جميعاً يا سيّدتي..

- أرجوكَ يا بُني لا تردد هذهِ الكلمة، أنا مثلُ والدتكَ ولستُ سيدتكَ..

- أنا آسفٌ إنَّهُ واجبُ الاحترام..

- بارَكَ اللهُ فيكَ أنتَ مثلُ همام تماماً.. لا فرقَ بينكما.. ما فعلتهُ لنا كانَ كبيراً..

دمعت عينا الدكتور يمان «يا إلهي ما أشدّ رقّةَ هذه المرأة؟ كيفَ لو تعرفين أنّني أبدلتُ دماغَ رجلٍ تافه بدماغِ زوجكِ، إن رأسهُ خالٍ الآن؟ كم أشعرُ بالخجل من نفسي!».

وهكذا تمكنت لينا بمساعدة الدكتور يمان الذي أقنعَ المدير بضرورة

تسليمها الجثمان، أن تتسلّمَ جسدَ زوجها غير مطّلعة على العملية التي استؤصلت بها دماغهُ ونُقلت إلى رأسِ بوسادا الإفريقي، ومشى الناسُ بالآلاف في موكبٍ مهيب خلفَ جثمان الكاتب، وأغلبهم يذرفُ الدموع حزناً عليه..

أمَّا بوسادا فقد اهتزَ جسدهُ، وفتحَ عينيه..

- آهٍ.. أينَ أنا؟

- أنتَ هنا بيننا يا سيّدي..

- ماذا أرى؟ كأنّني في مستشفى.. آهٍ رأسي يؤلمني..

- حمداً لله على سلامتك، أنتَ بخيرٍ الآن..

«يبدو أن ألقاً جديداً ينبعثُ من عينيه.. تُرى كيفَ سيتصرّف حينَ يعودُ إليه وعيه؟»..

همستْ سولا بحب:

- أنتَ بخيرٍ يا حبيبي..

- من أنتِ؟. ولماذا تبكين؟

- ما الذي جرى لهُ؟ إنّهُ يحكي بلغةٍ أخرى، حتى صوتهُ تغيّر..

- لا تقلقي يا سيّدتي، ما زالَ تحتَ تأثير العمل الجراحي، انظري إليه، عادَ يغمضُ عينيه وينام.. سيكونُ على خيرِ حال.. لا تقلقي..

- اسمع يا دكتور يمان.. قرّرنا إرسالكَ مع السيّد بوسادا.. سترافقهُ إلى بلدهِ، وتراقب حالته الصحيّة حتى تستقرّ جيّداً..

- إنَّها رحلةٌ محفوفةٌ بالمخاطر، قد تنقلبُ تصرفاتهُ كلياً، ويرون في شخصيته تغيراً واضحاً، ما الذي يمكن أن أفعلهُ حينذاك؟ سيرونَ أن العملَ

- بقليلٍ من التأثير النفسي، يمكنكَ دفعهُ في الاتجاه الذي كان يسلكهُ في حياته..

- اتجاه القسوة والبطش، أعتقدُ أنَّهُ سيغيرهُ كلياً..

- لماذا هذا الاعتقاد المؤكد؟

- شخصيةُ الكاتب ستنعكسُ على تصرفاته فما دام الدماغُ يعملُ جيداً سيعودُ إلى مخزونهِ وسيمارسُ طريقة تفكير صاحبه الأصلية..

- وقلبهُ الذي ينبضُ بدماءٍ متدفقة تغذي الدماغ، ألن يسهم هذا القلب في التأثير على هذا المخزون الموجود في الدماغ..؟

- على كل حال يبقى كلُّ شيء غامضاً، حتى يعودَ شيئاً فشيئاً إلى وعيه وشخصيته الجديدة..

* * *

- دكتور أرجوك يبدو أنَّ زوجي يعاني من آلامٍ هائلة في رأسهِ..

- حالتهُ مطمئنة.. سيتناولُ حبوباً مهدئة ويعودُ إلى طبيعته بعد انتهاءِ أثرِ العمل الجراحي..

«آهٍ.. ما الذي يجري لي؟ أشعرُ أنَّني أحلّقُ في عوالم غريبة.. هه من أنتِ أيّتها المرأة؟».

- ما الذي جرى عليكَ يا حبيبي، أنا سولا، لماذا تحكي بهذه اللهجة الغريبة؟.. آهٍ كدتُ أُجن من الخوفِ عليك..

همسَ مُستغرباً:

«سـولا زوجتـي؟ (فكّـر) مـا الذي يجري؟ أنـا لم أرَ هذه المرأة مـن قبل، وهذا الشـاب إلى جانبهـا مـا رأيتـهُ مـن قبـل.. لمـاذا تقـولُ إنّنـي زوجهـا؟.. هه.. سـبحان اللـه، مـاذا جـرى لي؟ بشرتي سـوداء! وجسـمي سـمين! كيف حـدثَ ذلك؟».

- إنَّـهُ شـاردٌ الآن، يبـدو أن ذاكرتـهُ قد تأثّرت، لا يهم، سيسـتعيدها بعد زوالِ أثرِ الجراحة..

- أرجو ذلك لقد تعذّبَ كثيراً..

- لا تقلقي سيكونُ بخير.

«إنَّـهُ يحـدّقُ بي، كأنَّـهُ يتعـرف بي، أيمكـن أن يعيـش بشـخصيته الأصليـة كبوسـادا؟ أمْ بشـخصية الدكتـور طـارق الجديـدة؟ إنَّـهُ أمـرٌ مُقلـق..».

* * *

(14)

وهكـذا اتّجهـت الطائـرة بالمسـؤولِ الإفريقي وزوجتـهُ في طريقهـا إلى بلاده، بعـدَ أن وُدّعَ وداعـاً رسـمياً، وسـطَ ذهولـهِ وشرودهِ، كأنَّـهُ لمْ يفهـم شـيئاً مما يجري حولـهُ.. وغـادرَ معـهُ عـلى الطائـرة الجـراح يمـان حسـبَ رغبـةِ الإدارة المركزيـة، ليُـشرفَ عـلى صحتـهِ والتئـام جُرحهِ بنفسـهِ.. وبالطبع اسـتقبِلَ اسـتقبالاً رسـمياً في العاصمـة الإفريقيـة، ولكـنَّ ردّة فعلهِ تجاهَ ذلكَ الاسـتقبال، كانـت غريبة، لقد كانَ فعـلاً مصابـاً بالذهـول والدهشـة، واعتقـدَ الجميع أنَّ وداعةَ شـخصيته وابتسـامته التـي لمْ يعرفهـا أحـد مـن قبـل، كانـت بسـببِ الحـادث الأليم الـذي تعـرّضَ لهُ.

وبـدأتْ الحيويـة تعودُ إلى قصر بوسـادا بعـدَ عودتهِ، كانت سـولا هي الآمرة الناهية:

- هيا أعدّي لسيدكِ الطعام، إنَّهُ جائع..

- الأكلة التي يفضلها شرائحُ لحم الأفاعي؟

- نعم.. وأكثري من التوابل.. هيا..

«أيُّ عـالمٍ غريـب أعيـشُ فيه، كيفَ تغيّرت شـخصيتي كلّ هـذا التغيّر؟ كأنّني في حُلـم.. الـذي أذكـره أنّنـي كنتُ أبيضَ البـشرة، أضعُ نظارات طبيـة، وكنتُ أمارسُ الكتابـة، آهٍ، أتذكـرُ وجـهَ زوجتـي السـمح وابتسـامتها العذبة.. يا إلهـي.. ومن هذهِ المـرأةُ السـوداء التـي تسـتلقي أمامي شـبهَ عارية؟ كيـفَ حدثَ وأصبحـتْ لي هذه

البشرة الداكنة وهذا الجسد الضخم؟».

- بماذا تفكر يا حبيبي؟

«إنَّها تصرُّ على أنَّها زوجتي، وهذا البيتُ الواسع المليء بالخدم والحشم هو بيتي أو قصري، منْ أنا؟ وماذا أعمل؟ وما الذي طرأ على حياتي؟»..

- لم تقلْ لي يا بوسادا؟ ما الذي يُقلقك؟ أنتَ في بلدكَ أخيراً بين قومكَ وشعبكَ الذي يخافك ويرتعش فزعاً من سماعِ اسمكَ..

- في الحقيقة، لا أفهمُ شيئاً حتى الآن.. ولكني أحاولُ أن أفهم، ويجب أن أفهم ما يحدثُ لي..

- ما زلتَ تفقدُ ذاكرتك.. سأستعيدُ لكَ بعضَ الذكريات التي قد تحتاجُ إليها..

أنتَ بوسادا الرجلُ القوي في هذه البلاد، الكل يدينون لكَ بالطاعة والولاء.. بلْ ويُصابون بالرعب حينَ يسمعون اسمكَ أو يرونكَ على شاشةِ التلفاز..

- لماذا؟ ماذا كنتُ أفعلُ لهم؟

- ألا تتذكر يا حبيبي؟ حسناً سأذكّرَكَ، أنتَ رجلٌ قويّ لا تأبهُ لعذاباتِ الناس، بل يلذّ لكَ أن تراهم يركعونَ أمامك.. أنتَ فخرُ الدولة وعمودُ ثباتها يا بوسادا.. سيزورَكَ بعضُ المسؤولين اليوم في المساء يا بوسادا..

«حتّى هذا الاسم الغريب (بوسادا) أكرههُ.. هه.. ما هذه الرائحة؟».

- حضر الطعام، هيا يا حبيبي نتناولُ طعامنا..

صرخَ متقززاً:

- إنَّـهُ طبقـكَ المفضـل، شرائـحٌ من لحـوم الأفاعي مـع التوابـل.. كنتَ تحبُ هـذا الطبـق كثيراً يـا حبيبي، أمـرتُ بطهوهِ لـكَ خصيصاً..

- أكادُ أتقيأ، أخرجيهِ من أمامي.. سأصابُ بالغثيان..

صرخت بالخادمة:

- أخرجيهِ من هنا، هيا بسرعة..

- حاضر يا سيّدتي..

فكّرت:

«يبدو أنّ تغيّراً جذرياً قد أصابهُ بعد ذلك الحادث..».

قالَ لها بعد خروج الخادمة:

- لماذا كنتِ قاسيةً معها؟ هي إنسانة عندها أحاسيس؟

- ماذا تقول؟ أنا كنتُ قاسيةً معها؟

فكرت: «أمعقول؟ يتهمني بالقسوة مع الخادمة؟».

- اسمعي، أشعرُ بصداعٍ الآن، أريدُ رؤيةَ ذلكَ الطبيب الشاب..

- سأطلبُ إحضارهُ لك يا حبيبي.. بأقصى سرعة..

- نعم.. أرجوكِ.. واتركينا وحدنا..

وحضرَ الدكتور يمان مسرعاً:

- مـاذا أقـولُ لـكَ يـا سـيّدي، حالتـكَ الصحيّـة جيّـدة.. فقـط هنـاكَ فقـدان ذاكـرة جـزئي سـيزولُ مـع الزمـن..

- ولكنّـي لا أسـتطيعُ تقبّـلَ مـا جـرى، هـذه الطاعـة العميـاء لمـن يعيشـون

هنـا، تشـعرني بالقـرف، حـين أطـلُّ عليهـم ينحنـون برعـبٍ كأنَّهم يـرونَ الشـيطان بعينه..

- أنـتَ الرجـلُ القـوي هنـا، الـكل يأتمـر بأمـركَ، ويقـرون بفضلـكَ بقيـادة بلادهـم..

- ولكنّـي لا أشـعرُ نحوهـم بشـعور الحاكـم لهـم، المسـيطر عـلى مقدراتهم.. بالعكـس أشـعرُ بالشـفقة، وتلـحّ عـليّ فكـرة الكتابـة، أتمنّـى أن أعـبّرَ عما أشـعر به مـن أسى نحوهـم.. وقـد حاولـت، ولكـن يـدي ثقيلـة لم تسـاعدني.. آهٍ.. أيَّـة حيـاةٍ غريبـةٍ أحياهـا الآن؟

«مـاذا أقـولُ لـه؟ هـل أقـولُ لـهُ إنَّ دماغـهُ زُرعَ في جسـدٍ آخـر، يبـدو أنَّـه لا يتقبّلـه حتـى الآن؟»..

- يمكنـكَ الذهـاب الآن.. أعلـمُ أنّـكَ لا تسـتطيع فعل شيء، وأنك لا تسـتطيع أيضـاً الإجابـة عن الأسـئلة التـي تُلحّ عـليّ وتؤرقني..

وحـضرَ بعـضُ أعضاء مجلس القيـادة ليهنئوه بالسـلامة.. كانَ بعضهم يرتدي الأوسـمة، انحنـوا جميعـاً أمامه، وكانـوا لا يجرؤون على النظرِ مبـاشرةٍ إلى عينيه..

- حمداً لله على سلامتك يا سيّدي..

فكّرَ: «ما هذهِ الوجوه الكريهة التي أراها، إنَّها تبالغ في التذلل والخضوع».

- كنّا أشبه باليتامى، لا نعرفُ كيفَ نتصرف وأنتَ بعيدٌ عنا..

- سـأقدّمُ لـكَ يـا سـيّدي تقريـراً مفصـلاً عـن الحالة الأمنيـة.. لمْ نقـصر خلالَ فـترة غيابـكَ عـن زجِ أعدائنـا في السـجون، ودسّ السّـمّ لهـم، والخلاص مـن مدبّري الفتن..

- البريد الرسمي ينتظرُ توقيعكم الكريم، لتطبيق القوانين النافذة..

فكّر منزعجاً: «أمعقولٌ أن أكونَ بهذه الوضاعة؟ إنّهم يتحدّثون إليّ كأنّني المسؤول الأوّل هنا؟».

ثم غمغم يقول:

- تفضلوا بالجلوس..

رجتهم سولا:

- أرجوكم راعوا حالتهُ قليلاً، ما زالَ تحتَ تأثيرِ المرض، أُجريت لهُ جراحة خطيرة..

تبادلوا حواراً مهماً:

- يبدو أنّه يتأمّلنا باستغراب، ونظراتهُ هادئة وديعة، وكنّا نرتجفُ حين نمثل أمامه..

- لا عليكَ، إنّهُ يعودُ إلى طبيعتهِ شيئاً فشيئاً..

أشارَ إليهم:

- تفضلوا أيُّها السادة.. سنجلسُ على المقاعد خلف المنضدة الكبيرة..

حتّى صوتهُ يبدو متغيّراً، إنّهُ هادئ لا يحملُ الضغينة لأحد كما يبدو. كأنَّهُ شخصٌ آخر لم يكترث بعباراتهم الترحيبية وتقاريرهم، شعرَ أنّهم يشكلون عبئاً على ذاكرته..

قال أحدهم:

- تستطيعون الانصراف، سننفرد بسيّدي لبعض الوقت.

- سأترُكُ البريدَ الرسمي هنا إذن يا سيّدي، وسأحضرُ صباحَ الغد لاستلامه..

- بإذنكم يا سيّدي..

- اشتقنا لإطلالتكم ووجهكم الصارم يا سيّدي، حمداً لله على سلامتكم..

خرجوا جميعاً ماعدا مدير الأمن.. وكذلك فعلتْ سولا:

- سأترككما أيضاً وحدكما..

نفخَ مدير الأمن أوداجه بعد خروج الجميع:

- قبضنا على ديبار وزوجته، كانا يروجان شائعاتِ موتكم وسط الناس، ديبار والدُ زوجتك يا سيّدي مع أمّها أيضاً؟

- والدا سولا؟

- نعم يا سيّدي، والدها ووالدتها.. إنَّهما الآن في الأقبية يخضعان للتعذيب. أعلمُ أنّها رغبتكم، كانا يشكلان عبئاً علينا.. أنا أنفذ مقولتك: «لا مجال للرحمة في مثل هذه الأمور».. هه.. ما رأيك يا سيّدي؟

«أمعقولٌ أن أكونَ بهذه الوحشية؟ ما الذي يجري حولي؟ لا أفهمُ شيئاً..».

- قبضنا على كل مروّجي الإشاعات المعادية لشخصكم الكريم، أصبحَ العدد الآن يزيدُ عن عشرةِ آلاف سجين.. ستنتهي من غالبيتهم بالطريقة ذاتها.. السّم.. والأدوية المثبطة لعمل القلب.

«معقولٌ أن أكونَ بهذهِ الخسّة والوحشية؟».

أوقفه منزعجاً:

- أنا متعبٌ قليلاً الآن.. سأراكَ غداً صباحاً.

- كما تشاءُ يا سيّدي.. وماذا عن ديبار وزوجته؟

- ديبار وزوجته؟

- والدا سولا زوجتك يا سيّدي..

- آهٍ.. سنتحدّث في هذا الشأن غداً أيضاً..

* * *

(15)

اندفعت سولا بعد خروج مدير الأمن:

- تبدو مرهقاً يا حبيبي..

«إنها ترتدي لباساً خفيفاً يظهرُ مفاتنها.. ولكني لا أشعرُ بالتعاطف معها، لا أدري لماذا؟ ما زالت إنسانةً غريبة بالنسبة إليّ؟ هه.. كيفَ أستطيعُ الحديثَ معها ووالداها يرقدان في السجن المعتم؟».

- خيرٌ يا حبيبي.. تبدو قلقاً وأنتَ تنظرُ نحوي.. أين نظراتكَ الحانية وحضنكَ الدافئ ألقي فيه تعبي وخوفي؟

وصلَ إليهما صوتُ ضجةٍ وصراخ مفجوع، سألها:

- ما هذا؟ ما الذي يجري؟ ألا تسمعين؟..

إنّها صرخاتُ امرأة..

كان الصوت يقترب:

- سولا.. سولا..

فكّرت سولا خائفة:

«إنَّها صديقتي القديمة سيما ماذا تفعلُ هنا؟ أمن الممكن أن تتكرّر مأساة أم فينري..».

- منْ هي هذه المرأة التي تصرخ؟ وماذا تريد؟ قولي لهم أن يدخلوها..

- بسرعة هيا..

ودخلت سيما دامعةً متعبة، وركعت أمامهُ:

- سـيّدي أرجـوكَ، أتوسـلُ إليـكَ أطلـق زوجي.. سـولا.. أرجوكِ قولي لـهُ إنّني صديقتـكِ، أقسـمُ لـكَ يـا سـيّدي إنّهُ لن يفتـحَ فمهُ في الـكلام عنكَ بعـدَ الآن..

- اهدئي أيّتها المرأة.. ما هي قصتكِ؟ تحدَّثي بالتفصيل..

- حـينَ جـرى لـكَ الحـادث في ذلـك البلـد البعيد تردّدت شـائعاتٌ تقـول: إنّ حالتـكَ خطـيرة، وإنَّـكَ لنْ تعيـشَ، فرحَ بعضُ النـاس وأطلقوا أهازيجهم، أقسـم لكَ يـا سـيّدي: إنّنـي لم أفـرحْ، كنتُ حزينـةً ودعوت اللهَ أن يسـاعدكَ لتسـتردّ صحتكَ.. ولكـنَ رجـالَ الأمـن ألقـوا القبـضَ عـلى زوجـي بعدمـا ادّعـوا أنّهـمْ سـمعوهُ يـردّدُ إشـاعةَ وفاتـكَ.. أقسـم لـكَ يا سـيّدي إنَّـه بريء..

فكّرَ شارداً: «إلى هذه الدرجة يكرهني الناس؟»..

كانت سولا قد انهارت خائفة:

- ويـلي عليـكِ يـا سـيما، أخـافُ عليـكِ من غضبـهِ، قد تموتـين، سـامحكِ الله، لمـاذا جئـتِ إلينا؟

كان ديبـار جارنـا والـدَ سـولا هـو أكـثر النـاس شـماتةً بإصابتـكَ. كلُ النـاس يـرددون ذلـك في بلدتنـا، وقـد قُبـض عليـه مـع زوجتـهِ أيضـاً، أنـا آسـفة يـا سـولا.. أعلـم أنّهـما لا يُحبّانـك، بـل ويكرهـان سـيرتك، ويطلبـان المـوت لـك..

صُعقت سولا: «يا إلهي والدي ووالدتي في السجن، معقول؟ يا إلهي؟».

- اهدئي أيّتها المرأة، سنرى ما يُمكن فعله..

هنا..

- لا تقلقي، اذهبي إلى بيتكِ وسيكونُ زوجكِ معك غداً.. هيا..

- بـارك اللـه فيـكَ يـا سـيّدي.. واللـهِ إنّهـم يفـترون عليـكَ الأكاذيـب، وأنـتَ مثـال الطيبـة والشـفقة، أرجـوك يـا سـيّدي لا تعبـث بي.. أنـا امـرأة ضعيفـة..

- اذهبي مطمئنة، لستُ أعبثُ بكِ.. هيا..

- أعانكِ الله.. ذكّريه يا سولا..

- اذهبي يا سيما، في رعايةِ الله..

وبعدَ أن خرجت سألها:

- لمْ تطلبي منّي إطلاق سراح والديك؟

- الأمرُ لكِ يا سيّدي..

- أرسـلي في طلـبِ مسـؤولِ الأمـن بسرعـة.. موعـدي معه غـداً، ولكن لا بأس أريـدُ رؤيته الآن، هيـا بسرعة..

- كما تشاءُ يا سيّدي ومولاي..

«مـا دمـتُ أملـكُ الصلاحيـة كـما يقولـون، سـأجري تغيـيراً كبـيراً في كلّ مـا حـولي، مـا دمـتُ أملـكُ القـوّة، لمـاذا لا أفعـل؟».

اعتقـدَ مديـرَ الأمن أنَّ بوسـادا يريـدُ إذلالَ ديبار وزوجته العجوز، فأرسـلهما مـع أحدِ ضباطـه مع بضعـةِ جنود:

- هيا تقدما أمامَ سيدنا..

- لا تدفعهما أيُّها الضابط.. انتظرْ وجنودكَ في الخارج.

- أمركَ يا سيّدي..

- أنا آسفٌ يا عم، لمْ أكنْ أعلمُ أنّهم زجوا بكما في السجن.. تفضلا بالجلوس..

فكّرَ ديبار: «أمعقول؟ إنَّهُ يسخرُ منّا هذا التافه دونَ شك؟».

قالت العجوز:

- اسمع يا سيد، نحنُ عجوزان لا نحتملُ السخرية، ونرفضها، إن أردتَ إعدامنا فافعل بسرعة، قبلَ أن نموتَ من القهرِ في السجن..

- ألهذه الدرجة تظنينني متوحشاً؟

قالت بسخرية:

- هه، معاذَ الله، أنت مثالُ الإنسانية والرحمة، تريدُ أن تشمتَ بنا؟ لا بأسْ، اضحك كما يحلو لكَ، أنتَ الظالم المتوحش الفاسق الذي قتلَ الكثيرين، وشوّهَ الكثيرين في أقبية تعذيبه.. هه.. «كلّ الناسِ أعدائي حتى يثبتوا العكس»، أليست هذه مقولتك؟

صرخَ ديبار:

- لا تزيدي من غضبكِ يا امرأة، ما لنا ولتصرفاته، الله وحدهُ سيحاسبهُ عليها..

- سولا.. سولا.. تعالي إلى هنا، ألا تريدين رؤيةَ أمّك، إنَّها هنا مع أبيك..

دخلت سولا تبكي:

- أنا آسفة يا أمّي ليتني أموت..

- الموتُ حقٌّ على الجميع، ولكنَ اللهَ سيعذبكِ لخروجك على طاعتنا..

غضبَ بوسادا:

- أين مسؤولُ الأمنِ في الدولة، ألمْ يحضر بعد؟..

دخلَ الرجل يرتجف:

- أنا هنا يا سيّدي، أنتظرُ طلبكم للمثول بين أيديكم..

- أطلق هذين من سجنهما، وليرسلا معزّزين مكرّمين إلى بلدتهما.. وإذا رغبتما في البقاء هنا أيام عدّة، سنوفّرُ لكما الراحة التي ترغبان..

همسَ ديبار:

- أحقّاً ما أسمع؟

قالت العجوز بغضب:

- كفى سخريةً منّا أيّها الرجل، نحنُ مستعدان لأقصى العقوبة، ولن نعتذرَ إليكَ..

- لستُ أسخرُ يا خالة.. هيا نفّذ الأمرَ بسرعة..

طأطأ مديرُ الأمنِ رأسهُ:

- حاضر يا سيّدي..

- اسمع أيُّها الرجل: سأعاقبكَ إن تلكأتَ في تنفيذِ الأمر..

- وقّع على الأمر حتى يكون قانونياً.. سأبحثُ عنهُ هنا بين الأوراق.. هه..

- أعطني الطلب.. سأوقعهُ..

فكّر: «يا إلهي كيفَ سأوقّع؟ لا أذكرُ كيف كان توقيعي»..

- أرني الطلبات القديمة..

- يمكنكَ تقليب الأوراق.. هه.. ها هي بعضُ الطلبات ينقصها توقيعكَ..

أتت سولا إليه:

- ما بكَ يا بوسادا؟ تبدو قلقاً..

- نسيتُ كيفَ كنتُ أوقّع..

همستْ بحنانٍ ساحر:

- يـدكَ تؤلمـكَ، لا بـأسَ يمكنكَ فتـحُ الخزانة وإخـراج الختم مـع التوقيع، ربما لا تتذكر الأرقـام السرّية..

* * *

(16)

أطلـقَ بوسـادا النـاسَ من السـجن وبدأ بثقةٍ يمـارسُ دورهُ حاكـماً فعلياً لتلكَ البـلاد، وغـيّرَ أسـلوبهُ تمامـاً، ولم يُصـدّق النـاس في البداية هـذا التغيـير الهائل الذي طـرأ عـلى شـخصيتهِ، فبعدَ أن كان سـفّاحاً ميّـالاً للقتل والتعذيب وإرهـاب الناس.. أصبـحَ رجـلاً هادئاً وقوراً يسـتمعُ للشـكاوى ويحلّها..

ولكـنَ الحكومـة التـي قامـت عـلى الـضرب بيـدٍ مـن حديـد عـلى أعدائهـا، أصبحـت تنفّـذُ مـا يردهـا مـن بوسـادا مـن أوامـرَ لمصلحـة النـاس.. وبـدأ نـوعٌ مـن العـداء ضـد بوسـادا ينتـشرُ في الطبقـة الحاكمـة، وخاصـةً أنَّ بوسـادا أوقـفَ عمليـات الرشـوة والعمـولات وغـيّرَ الكثـيرَ مـن المديريـن المسـؤولين الذيـن ثبـتَ تورطهـم في عمليـاتِ الفسـاد..

وبعـدَ أن كانَ بوسـادا رمـزاً للإرهـاب، أصبـحَ اسـمهُ يـدوي بـين النـاس، مثالاً للعدالـة والضمـير اليقـظ، وأرجـعَ النـاس ذلـكَ التغيـير في شـخصيته إلى الحـادث الـذي جـرى لـه، وأيقظـهُ مـن غيبوبته، وشـهوتهُ الطامحة إلى السـيطرة عـلى الناس واستعبادهم.

ورغـمَ أنَّ اللغـة كانـت متعـثرة أحيانـاً، فلقـد أصبـحَ بليغـاً في إلقـاءِ خطاباتهِ القصـيرة عـلى النـاس، يوعّيهـم للعمـل والتضحيـة في سـبيلِ مصلحـةِ الوطن..

وفي مـكانٍ آخـر وصلـت إلى السـيّدة لينـا رسـالة غريبـة بخط زوجهـا المتوفى،

كانـت رسـالةً مليئـةً بالحب والشـوق.. وحينَ أرتها لولدها همام بـدا عليهِ الذهول..

- إنّـهُ خـطُّ والـدي، وعباراتـهُ.. ولكـن الرسـالة مـن دون تاريـخ، قـد تكـون قديمـة.. ربمـا مـن سـنوات..

- انظـر إلى الطابـع الموجـود عـلى المغلـف، إنّـهُ مـن دولـةٍ لم يزرهـا والـدكَ طـوالَ حياتـه..

- أحدهـم يعبـثُ بنـا يـا أمّـاه.. ربمـا كانـت رسـالةً قديمة وضعـت في مغلف وأرسـلت مـن تلـك الدولـة للتضليل...

- من الذي لهُ مصلحة في ذلك؟

- إذن لماذا أنتِ مهتمة بالموضوع؟

- أريـدُ أن أتعـرّف إلى هذا الشـخص الذي أرسـلها، قد يكون محتفظاً بأشـياء عـن والدكَ، أرغـبُ في طلبها منه..

- يبدو الأمرُ معقداً، سننتظرُ، قد نستلمُ رسالةً أخرى؟

ولكنَ جرسَ الهاتف قطعَ عليهما الحوار:

- ألو.. نعم، من المتكلّم؟

قالَ الصوتُ من الطرف الآخر:

- أريدُ أن أتحدّثَ مع السيّدة لينا من فضلك؟

قالَ همام لوالدته:

- إحداهن ترغبُ في الحديثِ معك.. تفضلي..

أمسكت السماعة مستغربة..

- نعم؟ منْ أنتِ؟ وماذا تريدين؟

تعـرّضَ لعمليـةِ سرقـة.. سرقـوا دماغـه.. وزرعـوهُ في جسـدٍ آخـر.. أنـا آسـفة.. كنـا نحبّـهُ جميعـاً.

كانت المرأة تبكي ولينا تصرخ:

- ألو.. أغلقت الخط..

- ما بكِ تبدين مذهولة؟ ماذا جرى لك يا أمّاه؟. أمّاه.. أمّاه..

* * *

أُغمـي عـلى السـيدة لينـا، وحـينَ اسـتيقظت حكـتْ لهـمام عـن الهاتـف المجهـول.. وعـن الصـوتِ البـاكي عـلى الطـرفِ الآخـر. وبالطبـع كان الخـبرُ مفاجـأةً كبـيرة، وقـد حـاولَ هـمام أن ينفيـه، لأنّ عمليـات زرع الأدمغـة لأشـخاصٍ كبـار في السـنّ لم تجـر قبـل.. ثمَّ إن اسـتئصالَ دماغ والـده ربما كان لغـرضٍ تشريحي فقط.. ولكـنَّ لينـا ظلّـت حزينـة مذهولـة وهـي تـردّدُ فيـما بينهـا وبـينَ نفسـها عبـاراتٍ تجمـعُ بـين الدهشـة وعـدم التصديـق والغضـب أيضـاً..

أمـا بوسـادا فانقلـبَ الشـعبُ في تلكَ البـلاد إلى محبٍّ لهُ، بعدَ أن كانَ اسـمهُ يبعـثُ الرعـب في القلـوب. ولمْ تمـضِ عـلى ذلـكَ سـنتان مـن التغيـير في شـخصيته، حتـى تعـرضَ لمحاولـة اغتيالٍ لم تنجـحْ، كانَ بعضُ شركائـهُ في الحكم وراءهـا.. وكانَ يـصرُّ عـلى إبقـاءِ الدكتور يمـان معهُ أينـما ذهب..

واسـتمرت رسـائلهُ غـير المؤرخـة تصـلُ إلى السـيدة لينـا وسـطَ دهشـةِ همام الـذي توصّـلَ أخـيراً إلى نتيجـة تؤكّـد صحّـة الهاتـف المجهـول الـذي تلقّتـهُ والدتـهُ مـن المـرأة الغامضة..

وشـيئاً فشـيئاً أخـذَ يجـري تحرياته بهدوء، حتـى توصّـلَ إلى الحقيقة، وعرفَ أن دمـاغَ والـده وُضعَ في رأسِ مسـؤولٍ إفريقي كبير.. وقد أرسـلَ رسـالةً إلى الدكتور يمـان يؤكّـدُ لـهُ فيهـا أنّـه يعـرفُ الحقيقـة ويعـرفُ بذلـك المسـؤول وشـخصيته المحبوبـة في بـلادهِ، بعـدَ أن كانَ مكروهـاً لوحشـيتهِ وقسـوتهِ.. وطلبَ مـن الدكتور يمـان مسـاعدتهُ في الحضـورِ للتعـرّف عـلى ذلـكَ الرجـل الـذي يقبعُ دمـاغ والده في رأسـهِ.. ولكـنّ الـذي حـدثَ بعـد ذلـك، أن خصـومَ بوسـادا نجحـوا في قتلـه، وبـكى عليـه النـاس وسـاروا بأعـداد غفـيرة في جنازته.. وكانَ ممّـن بكاهُ أيضـاً الدكتور يمان الـذي عـاصرَ تغـيّرهُ الإيجـابي نحو الحـبّ ومسـاعدة الناس..

* * *

افيين غتث

القسم الأول

الإنذار والرحيل 3

القسم الثاني

مخزون الدماغ ينتصر في النهاية 51